

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00853 2008 6

01-8159

Ant Jan 11th

١٨١١



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

٤٧

— ٤٠

م

الغزل في شرايب الروض
كما الزهيرة المبردة

— الله الدردعي في الصور
و الوعد

على سلكه

71-1

75

71

VI

VV

19

95

91

1.5

المكتبة

THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN CAIRO
LIBRARY



Handwritten signature or scribble in black ink, located in the center-left area of the page. The script is cursive and somewhat illegible.



نوابغ الفكر العربي

حسب ح ١١
س ١٢
س ١٣
س ١٤
س ١٥
س ١٦
س ١٧
س ١٨
س ١٩
س ٢٠
س ٢١
س ٢٢
س ٢٣
س ٢٤
س ٢٥
س ٢٦
س ٢٧
س ٢٨
س ٢٩
س ٣٠
س ٣١
س ٣٢
س ٣٣
س ٣٤
س ٣٥
س ٣٦
س ٣٧
س ٣٨
س ٣٩
س ٤٠
س ٤١
س ٤٢
س ٤٣
س ٤٤
س ٤٥
س ٤٦
س ٤٧
س ٤٨
س ٤٩
س ٥٠
س ٥١
س ٥٢
س ٥٣
س ٥٤
س ٥٥
س ٥٦
س ٥٧
س ٥٨
س ٥٩
س ٦٠
س ٦١
س ٦٢
س ٦٣
س ٦٤
س ٦٥
س ٦٦
س ٦٧
س ٦٨
س ٦٩
س ٧٠
س ٧١
س ٧٢
س ٧٣
س ٧٤
س ٧٥
س ٧٦
س ٧٧
س ٧٨
س ٧٩
س ٨٠
س ٨١
س ٨٢
س ٨٣
س ٨٤
س ٨٥
س ٨٦
س ٨٧
س ٨٨
س ٨٩
س ٩٠
س ٩١
س ٩٢
س ٩٣
س ٩٤
س ٩٥
س ٩٦
س ٩٧
س ٩٨
س ٩٩
س ١٠٠

PJ

7745

I 165

Z 69

1955

ابن الرومي

بقلم محمد عبد الغني حسن

«... وكان ابن الرومي ضئيلاً بالمعاني

حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ،

فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرفه في كل وجه

وإلى كل ناحية ، حتى يميته ، ويعلم أنه لا مضيع

فيه لأحد . »

ابن رشيقي القيرواني



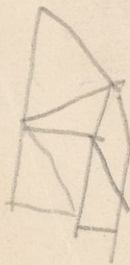
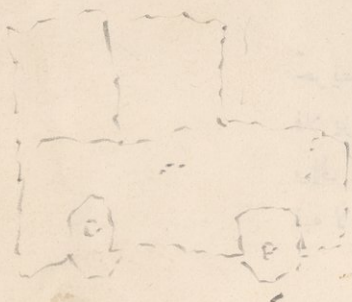
دار المعارف بمصر

oclc
23508372

B.11923398
13234328

١١١ ٣٠٩

ع ٢



37295

المضايقة أن الصدام كان يعنف قليلاً أو كثيراً بين جنود الترك وأهل بغداد .
وفي غمار هذه المصادمات ولد ابن الرومي ، ولعله قد أصيب في طفولته
ببعض الأذى من جنود الترك وهم يعيشون فساداً في مسارب بغداد . . .
ولو أن شاعرنا ابن الرومي أدرك الترك في بغداد وهو شاعر مدرك لما
سلموا من هجائه كما لم يسلموا من لسان « دعبل » الشاعر الذي كان أسن
من ابن الرومي في ذلك الحين ، والذي قال فيهم :

« ضاع أمرُ الناس حيث يسوسهم » « وصيف » و « أشناس » وقد عظم الخطب
ولكن ابن الرومي كان في المهدي صبيّاً حين زحم الجنود الترك طرقات بغداد ،
غلاماً حين نقلهم الخليفة المعتصم إلى مدينة « سامرا » التي بناها لهم ،
نصر لها الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار .

لقد أحس المعتصم أنه جلب على نفسه وعلى الخلافة العباسية شراً كبيراً حين
جلب إليه جنود الترك واصطنعهم . . . ووازن بين خدمة الفرس لمن قبله من
الحلفاء ، وخدمة الترك له فوجد البون شاسعاً ، واعترف أنه اصطنع أربعة
من كبار قواد الترك فلم يفلح واحد منهم . ومن عجب أن بقاءهم في بغداد
كان شراً عليها ، وأن خروجهم منها إلى « سرّ من رأى » كان شراً عليها
نمّاً . . . فقد بارت تجارتها وتأثرت حضارتها بعض التأثير .

ومهما قيل من قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس ومؤازرتهم ، فإن الخليفة
العنصر التركي الجديد دخل في ميدان المنافسة مع الفرس ، وأخذ النفوذ التّان أخوه
يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى إن الواثق بن المعتصم استخلف على السلطنة ق (٤) .
كياً وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهرًا . . .

وشبّ ابن الرومي فشبّ معه نفوذ الأتراك ، فقد كان إيتاخ التركي يقتل
من يريد الخليفة قتله أو يحبس من يريد حبسه ، بل لقد همّ بقتل الخليفة
نوكل وهو يعربد مرة في متنته بناحية القاطول (١) .

ولم تنقطع الدسائس بين الفرس والترك من ناحية ولا بين الترك بعضهم
وبعض من ناحية أخرى ، حتى لقد ضاقت دار الخلافة بمؤامراتهم ، وضاق

(٣) الطبري .

(٤) « الـ »

الفصل الأول

عَصْرُ ابْنِ الرُّومِي

١ - الحياة السياسية

لعل شاعراً لم يعاصر بضعة من الخلفاء كما عاصر ابن الرومي ، في
صحت رواية ابن خلكان من أنه ولد سنة ٢٢١ هـ ، وأنه مات سنة ٢٨٣ هـ
فإنه يكون منذ مولده إلى أن حان حينه قد عاصر المعتصم والواثق والمتوكل
والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد شاء
بست سنوات (١) .

على أن هذه الحقبة من الزمان لم تستغرق غير اثنين وستين عاماً
وما ظنك ببضعة عقود من السنين يتعاقب فيها الحكم على الخلافة العباسية
تسعة من الخلفاء ؟ أنجد في ذلك من عوامل الاستقرار ما يجيز لنا أن نطرح
تلك الحقبة بطابع الهدوء السياسي ؟ وكيف نصف ذلك العهد بالهدوء
كانت خلافة المعتصم نفسها نذيراً بالخلاف بين الخليفة وابن أخيه العباس
لشغب الجند على المعتصم حين بويج ، ونادوا بالعباس خليفة ، فأرسل
صم إلى العباس فأحضره ، فبايع عمه ، وخرج إلى الجند المشاغبيين
قائلاً : ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه . فسكن
الجند (٢) .

وليست هذه الحادثة هي بداية الشغب في استهلال الشاعر ابن الرومي
إلى الدنيا ، فقد اقترن مولده أيضاً بحادث آخر ، وهو استكثار الجند
المعتصم من جنود الأتراك ، حتى آذوا أهل بغداد وضايقوهم (٣) ، وبذلك

(١) « الفخرى في الآداب السلطانية » .

(٢) « تاريخ الطبري » ج ١٠ ص ٣٠٤ secondary source

(٣) « مروج الذهب » للمسمودي .

المتوكل بدسائسهم ، ففكر في أن ينقل الخلافة من بغداد إلى دمشق ^(١) ،
فراراً من العنصر التركي المشاغب إلى العنصر العربي الذي كان قد تخلى عن
المعركة من زمن غير بعيد

وبلغ من دسائس ذلك العصر أن الخلاف كان يشتد بين الابن وأبيه ،
وقد قامت مباينة بالفعل بين المتوكل وابنه المنتصر ، وكان كل منهما يكره
الآخر ويؤذيه . . . فاتفق الابن مع جماعة من الأتراك على الفتك بأبيه
الخليفة ، فقتلوه وهو يشرب مع وزيره الفتح بن خاقان ، وتهناً لابن بالجلوس
على سرير الخلافة بعد أبيه ^(٢) .

وبلغ من هوان الخلفاء في ذلك العصر أن هان الأمراء والوزراء معهم ،
فكانت الوزارة لا تنال بعلم ، ولا تدرك بفضل ، ولا يحظى بها مستحق ،
ولنما ينالها من يدفع لها الثمن ، فكان ابن عمار وزير المعتصم طحاناً أثري
وكثر ماله ، واتسع ببغداد حاله فاستوزره الخليفة . . . وكذلك كان جعفر
الإسكافي وزير المعتز ، فالتاريخ يشهد أنه لم يكن له علم ولا أدب ، ولكنه
كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا ^(٣) .

وإن عصرًا يبلغ من سوء الظن فيه أن لا يثق خليفة بابه ، ولا نظير
بنظيره ، ولا أخ بأخيه هو عصر يدلنا على مبلغ ما وصل إليه اعتقاد الناس
في قيم الحياة ، وعلى حرصهم على انتهاز الفرصة المواتية . فقد كان الخليفة
المعتمد قائماً وشاعراً في سن الكهولة ، وكان الخليفة مستضعفاً ، وكان أخوه
الموفق هو الغالب عليه في أمور الخلافة ، وصاحبنا مشغول عنها بلذاته ^(٤) .
وماذا يعنى الرجل من الخلافة ما دام له اسمها ورسمها ومحافلها ومظاهرها ،
وإن كان لأخيه الأمر والنهي وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء والمرابطة بالثغور ؟
على أن هوان الوزراء لم يمنع أن يظهر في حياة ابن الرومي وزير جليل
مثل أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، ويشهد له ابن طباطبا المؤرخ بأنه كان

(١) « ظهر الإسلام » لأحمد أمين ج ١

(٢) « الفخرى في الآداب السلطانية » ص ٢١٦

(٣) المصدر السابق ص ٢٢١

(٤) « الفخرى في الآداب السلطانية » ص ٢٢٦

كريمًا مطعاماً متجملاً . . . إلا أنه رزئ بابن الرومي ، أو رزئ ابن الرومي به ، فمدحه الشاعر بقصيدة ظن الممدوح أنه يعرض فيها بنسبه إلى قبيلة شيبان العظيمة ، وجزم بأن ابن الرمي هجاء ولم يمدحه ، فأغرى ذلك الموقف شاعرنا بهجائه هجاء مفحشاً بعد ذلك ، حتى زعم أن ما أصابه من الجاه والسلطان لم يكن إلا لسبب الحظ الذي يحيل الحسيس إلى كريم :

إن للحظ كيمياء إذا ما مسّ كلباً أصاره إنساناً

ولم يسلم الشعب في غمار هذه المنافسات بين الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد من لواجع الفتن ، وشدائد العذاب . فإن الخليفة المستعين — وهو الذي جاء بعد المنتصر — قد ضايق الأتراك وضايقه ، فترك لهم سامراً ولجأ إلى بغداد يلتمس فيها ظلال الأمن والعافية ، فسلطوا عليه المعتز وبايعوه ليحاربوه به ، ولقيت بغداد وسامراً من ذلك عنتاً وأهوالاً ، وانتهت الفتن بمقتل المستعين ، ولكن المعتز لم يهنأ بعده في الخلافة بنوم ولا قرار . . . وكان لا يخلع سلاحه في ليل ولا نهار ، خوفاً من انتفاض الترك عليه ، وانتهى الأمر بأنهم خلعوه وقتلوه .

ولا نستطيع أن نصور الحالة السياسية في عصر ابن الرومي خيراً مما صورها به أحد ظرفاء ذلك العصر نفسه . . . فإن المعتز لما جلس على سرير الخلافة سنة ٢٥٢ أحضر له خواصه المنجمين ليسألهم كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم سنة يملك ؟ فقال : يعيش ويحكم كما أراد الأتراك ! فلم يبق في المجلس إلا من ضحك. (١)

في هذا العصر المضطرب المزعزع المشحون بالتيارات السياسية الطارئة على الدولة العباسية عاش ابن الرومي ، وفي موجة الصراع بين العرب والفرس والترك ، وموجة الصراع في المذاهب والملل والنحل ، وفي بلبلة من القرار السياسي الذي لم تتمتع به الدولة العباسية إلا قليلاً ، ظهر شاعر مرهف الحس

فبعد عن حياة القصور في بغداد وما فيها من مؤامرات ، ولعله كان يلتبس النجاة ويؤثر العافية ، وهو يرى الخلفاء يُقتلون ، والوزراء يُعذَّبون في التنوير وفي غير التنوير ، مما ابتدعه القساة للتعذيب والتنكيل ، ولكنه - في نهاية المطاف - لم يسلم من غيلة القتل مسموماً - كما تذكر بعض الروايات - مما سنعرض له في فصل تال .

ومات ابن الرومي سنة ٢٨٣ أى بعد أربع سنوات من خلافة المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ، فشهد بعض الصلاح في دولة العباسيين ، وشهد من محمود سيرة الخليفة ما عمرت به مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور . إلا أن الفتوق بدأت تدخل رقعة المملكة الإسلامية ، فقام عمرو بن الليث الصفار ليقطع جزءاً من بلاد العجم يكون به دويلة مستقلة ، ومن ذلك الحين بدأت الدولة العباسية تدخل في طريق تقسيمها إلى دويلات ، بعد أن كانت كياناً واحداً ، ودولة موحدة (١) .

٢ - الحالة الاجتماعية

لا نخال تصويرنا للحياة الاجتماعية في عصر ابن الرومي يبلغ من الدقة مبلغ الصورة التي وصف بها الشاعر نفسه ألواناً من الناس ، وضروباً من العيش ، وفنوناً من اللذات في قصيدته البائية التي عاتب بها أبا سهل ابن نوبخت ، وشكا إليه بعض الناس ! ولعل المعاتب هو واحد منهم ففي هذه القصيدة التي سنذكر طرفاً منها في الفصل الرابع يصف ابن الرومي حياة السهر والليل في بيوت الطبقة العالية ، ويصف الجوارى الكواعب وهن لابسات شفوفاً كالهواء الرقيق أو كالسراب ويصف طبقات من رجال الدولة وجباة الأموال وعمال الشرطة وقد أصبحوا ذاهلين عن أشجان الناس بما هم فيه من أمور وخمور وفراء من السمور (٢) ويصف لنا سيمار الليالي

(١) « الفخرى في الآداب السلطانية » ص ٢٣١ ، و « الطبرى » ج ١١ ص ٣٥٢ وما بعدها .

(٢) فرو ثمين يعدل أفخر الفراء في عصرنا هذا .

بما عندهم من كل ما اشتهوه من الآلات والأشربة وأطيب الغوالى ، والنند^(١) في الحجامر وقد انتشر بخوره كالضباب . وهذا الترف الناعم في حياة الرجال لم يجمعه علم ولا أدب ولا فضيلة ولا جهاد شريف في سبيل الكسب ، ولكن جمعته الشرطة بعسفها ، والكتّاب بمظالمهم ، والتجار الذين يشبهون البهائم في نظر الشاعر . . . وكلهم قد حرموا شجاعة النفس ومزية الحمية ، حتى لم يعد فيهم مدافع عن حريم ، ولا ثائر لعرض . . . وقد اتسموا بالأمانة زوراً ، وهم أكثر الناس خراباً في الذمم ، وفساداً في الضمائر . وقد بلغ من تهالكهم على الشهوات أنهم لا يفرقون بين الفتاة الناعمة والعجوز المتصايبية :

كم لديهم للهوهم من كعاب^(٢) وعجوز شبيهة بالكعاب
ويسخر الشاعر من هؤلاء القوم العربدين الذين لا يرتضون أن يكونوا عبيداً وهم في مراتب السادة الأرباب ، ويثور ابن الرومي ثورةً مرّةً على الزمان المحابي الذي لو أنصف في القسمة لم يكن الشاعر دون هؤلاء المالكين . . . ولعل ثورة ابن الرومي ونقمته على هذه الأوضاع لم تكن إلا تعبيراً عن ثورة كثيرين من المحدودين المحرومين من أهل زمانه / وهم يرون أغرب المفارقات في عصر يرتفع بالثيم الحسيس إلى مراتب الحكم والغنى والأمر والنهي . . . وعلى الرغم من جدّة^(٣) الواجدين في عصر ابن الرومي فقد كان الحرمان نصيب الكثرة الكاثرة ، وكان الغلاء يشبهه الرعيب يهدّد البلاد من حين إلى حين . . . ونقرأ في « الطبرى » في حوادث سنة ٢٧٢ هـ أن السعر غلا ببغداد لأن التجار من أهل سامراً منعوا سفن الدقيق من الانحدار إليها متربصين بذلك غلاء الأسعار^(٤) . ونقرأ بعد ذلك أن العامة ضجوا من الغلاء واجتمعوا للوثوب على « الطائى » الذى كان يحتكر السلع ويتحكم في الأسعار^(٥) .

(١) النند : نوع من عود البخور

(٢) الكعاب : الفتاة التى نهّد ثديها

(٣) الجدة : الغنى

(٤) « تاريخ الطبرى » ج ١١ ص ٣٣١

(٥) المصدر نفسه

رأيت ومن هنا جمع أمثال هذا المحتكر ثروات طائلة لا يدركها حصر ، فلا
نعجب إذا كان الكبس والمصادرة نصيب هذه الثروات من وقت لآخر ،
حتى صار ذلك عادة متبعة^(١) . فقد صادر المتوكل محمد بن عبد الملك
الزيات وأخذ ما في داره من متاع ومال ودواب وغلمان ، واستصنف أموال
أحمد بن أبي دؤاد وأموال أبنائه وجواهرهم جميعاً حتى اجتمع له من ذلك
آلاف الآلاف ، وعذب إبراهيم بن الجعيد النصراني حتى أقر له بسبعين
ألف دينار استخرجها من منزله^(٢) .

ولقد جمع ذلك العصر من غرائب المناقضات ما لا نستغرب معه تناقض
ابن الرومي واضطرابه في كثير من فنون شعره ، بين مدح وذم لشخص واحد ،
أو لشئ واحد ، فبينما نرى خليفة كالمعتمد ينشغل عن الخلافة ببلذاته ، إذا
بنا نرى الخليفة المهتدي يتشبه بعمر بن عبد العزيز في سمته وصفته وعدله ،
ويقول : إني أستحي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني
العباس^(٣) . وبينما نرى مائدة المعتز مثلاً وقد ملئت بصحاف الذهب ،
وأخصبت بألوان من أشهى الأطعمة وأتق المأكول إذا بنا نرى الخليفة المهتدي
وعنده نفر من بني هاشم في بعض ليالي رمضان ، وقد حل موعد الإفطار ،
لا تحفل مائدته إلا بطبق مصنوع من مجدول شجر الخلاف^(٤) وعليه أرغفة ،
وفي إناء ملح ، وفي آخر خل . . . وذلك كله هو طعام الخليفة وضيافته في
شهر الصيام^(٥) . . .

وبينما نرى بعض الخلفاء يمتنعون عن الشراب ، إذا بنا نرى الخليفة المعتمد
شغوفاً بالطرب ، تغلب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي^(٦) .
وبينما نرى بعض النساك الزاهدين الهائمين بحب الذات الإلهية ، القائمين الليل

(١) « ظهر الإسلام » ج ١ ص ٣٤

(٢) « الطبرى » ج ١١ ص ٣١

(٣) « الفخرى في الآداب السلطانية » صفحة ٢٢٣

(٤) الخلاف : صنف من الصفصاف

(٥) « الفخرى في الآداب السلطانية »

(٦) « مروج الذهب » للمسعودى ج ٤ ص ١٥٧

في الصلوات والتعبد ، نرى خليفة كالمنتصر يشجع الأحاديث عن العشق في مجالسه ، بل نراه يحتال فيبتاع بجانبة من مصر قد أولع بها أحد رجاله أبو عثمان سعيد ، حينما وجهه إلى مصر في بعض أمور السلطان (١) .

ولم لا يفتن خليفة كالمنتصر أو المعتمد أو المعتز بالطرب وحديث العشق وكل ما في بغداد كان يدعو إلى ذلك ويحث عليه ؟ ألم تكن الجوارى يعرضن في أسواق الرقيق فيبيعن فيها بأغلى الأثمان ؟ ألم يكن في القيان من تصلح للغناء ، ومن تصلح للرقص ، ومن تصلح للمنادمة على الشراب ، وأخيراً من تصلح لإنجاب الأولاد ؟ بل كان بعض الجوارى لتلاوة القرآن ، كجوارى أم جعفر ، اللاتي كان يسمع صوتهن كدوى النحل (٢) .

دخل عنصر الروم في نطاق الرقيق منذ اشتبك المسلمون مع البيزنطيين في الحروب . ففي وقعة عمورية بالذات في عهد المعتصم أسر عديد من الروم فكان ينادى على الرقيق للبيع عشرة عشرة طلباً للسرعة (٣) . وانتشر المولى من الروم في نواحي العراق ، وأنجبت الروميات للعرب خير الأبناء ، أو شر الأبناء على السواء . . . فالحلفاء المنتصر والمعتز والمعتمد - وهم ممن عاصرهم شاعرنا - أمهاتهم روميات (٤) . بل مالنا نذهب بعيداً في ضرب الأمثال ؟ فابن الرومي نفسه كان مولى من مولى الروم لعبيد الله بن عيسى ابن جعفر بن المنصور العباسي (٥) . وأم شاعرنا كانت فارسية كما سيجيء بعد . ومن حسن الحظ أنها لم تكن قينة ولا مغنية من أولئك اللاتي وصفهن الشاعر أو هجاهن بأفحش الهجاء . . . لهذا لا نعجب إذا وجدنا في ديوان ابن الرومي شعراً كثيراً في وصف القيان والمغنيات والجوارى ، فقد غلبن على الحياة في عصره ، حتى لم يعد بدعاً أن يسمى عصر القيان . . . ولقد اجتمع بجوار هؤلاء المولى والرقيق الأبيض طائفة من سود الخدم ،

(١) « مروج الذهب » ج ٤ ص ٨٧

(٢) « تاريخ التمدن الإسلامي » لزيدان ج ٥ ص ٣٠

(٣) « الكامل » لابن الأثير ج ٦

(٤) « ظهر الإسلام » ج ١ ص ٦٦

(٥) « وفيات الأعيان » ص ٤٤٢

رأيانهم يثورون ثورة الزنج في عهد المعتمد، إلى أن غلبهم الجيش العباسي فأبادهم قتلاً وأسرًا. ورأيانهم في سنة ٢٨٤ يحدثون ثورة في بغداد، لأن العامة إذا رأوا واحداً منهم قالوا له: يا عقيق! صب ماء واطرح دقيق! وكان يلحقهم الأذى من الصغير والكبير في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق^(١). وتأثر ابن الرومي بثورة الزنج فوصف ما حلّ بضحاياها المساكين على أيدي الثائرين.

وفي هذا المجتمع الهائج القلق لم يكن بعيداً أن يتخلص المرء من خصمه أو عدوه بأيسر الطرق مثونة وأبشعها عاقبة. فكان السم دائماً أغلب الطرق للخلاص من الأعداء. ألم يمت الخليفة المعتضد مسموماً بما دسه له إسماعيل ابن بلبل قبل قتل الخليفة إياه^(٢)؟ لقد كان ابن الرومي نفسه ضحية هذه العادة الفاشية للتخلص من الأعداء، فقتل مسموماً كما سيجيء في فصل تال. كان عصر ابن الرومي مزيجاً من الترف والبؤس، والسعة والضيق، والتدين والتحلل، والمروءات والحساسات، بل كان عصر تقلب وقسوة وجبن وقلة وفاء، وفتن ودسائس. بل كانت أحط الشهوات بين الشعب والموالي مطلقة العنان من كل جانب^(٣). فليس عجباً أن يكون ابن الرومي وشعره مرآة صادقة لذلك العصر.

٣ - الحياة العقلية

عاش ابن الرومي في القرن الثالث الهجري، وإن كان فاته منه عقدان في بدايته، وقراءة عقليين في نهايته. فهو ثمرة ذلك القرن بالذات، وثمرته ما سبق ذلك القرن من تمهيد لحركة النقل والترجمة في عصر المنصور والرشيد والمأمون. وكما كان ذلك القرن مائجاً في سياسته وأحواله الاجتماعية، فقد كان مائجاً بحركات عقلية مختلفة. فيخطيء من يظن أنه كان عصرًا جديداً على

(١) «مروج الذهب» ج ٤ ص ١٩٣

(٢) «مروج الذهب» للمسعودي ج ٤ ص ٢٠٥

(٣) «الشوامخ» ج ٤ لمحمد صبري

الإطلاق ، ويخطئ من يقول إنه كان عصرًا متشبهًا بالقديم . فقد التقى فيه العلم بالفلسفة . والتقى التحلل الخلقى بالتصوف ، والتقى الأدب واللغة والفقه بمفهوماتها القديمة مع الهندسة والتنجيم والكيمياء والرياضة والمنطق بمفهوماتها الحديثة من ثمرات النقل والترجمة . والتقت المذاهب الكلامية لقاء عنيفاً ، حتى لقد رأينا الإمام الأشعري معتزلياً أول الأمر ، ثم رأيناه بعد ذلك يحارب الاعتزال ويؤلف له مذهباً جديداً يدعو إليه ، ويرقى كرسيّاً في مسجد البصرة فينادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأني أعرفه بنفسى^(١) . . . ولقد ابتلى المعتزلة وعلى رأسهم أبو الهذيل العلاف والجبائي بأبي الحسن الأشعري ، وكان المعتزلة قد رفعوا رءوسهم ، فحجزهم الأشعري في أقماع السماسم^(٢) .

وفي هذا العصر نجد الحديث النبوي يجمع جمعاً وثيقاً على يد البخاري المتوفى سنة ٢٦٥ هـ ، ومسلم ، وابن ماجه ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي الذي توفي بعد ابن الرومي بعشرين عاماً . ونرى الإمام الطبري يجمع بين التفسير والحديث والتاريخ في ثقافة رجل واحد .

وبجانب هذا العدد من علماء الدين نرى الكندي الفيلسوف وقد عاش إلى عصر المتوكل ، ونرى الفارابي صاحب « إحصاء العلوم » والذي استحق لقب المعلم الثاني^(٣) . ولم يعيش فيه ابن سينا كما ذكر العقاد في كتابه عن ابن الرومي^(٤) . ونرى فيه من الأطباء يوحنا ابن ماسويه ، وابن سهل ، والرازي . ونرى من أدبائه الجاحظ ، والسكري الراوية الكبير ، وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار ، وقدامة بن جعفر الناقد في كتابيه نقد النثر ونقد الشعر ، والوشاء صاحب كتاب الموشى ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبا بكر الصولي الشطرنجي الذي نادى الخلفاء وجمع لنا كثيراً من دواوين الشعراء .

(١) « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٦٤ و « تاريخ آداب اللغة العربية » لخرجي زيدان

ج ٢ ص ٢٠٨

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لخرجي زيدان ج ٢ ص ٢٠٩

(٣) « تاريخ آداب اللغة العربية » لخرجي زيدان ج ٢ ص ٢١٣

(٤) « ابن الرومي » لعباس محمود العقاد ص ٣٨

ونرى من النحويين في ذلك العصر أبا عثمان المازني ، وأبا العباس ثعلباً ،
والزجاج ، وابن الأنباري ، وأبا جعفر النحاس ، والمنذري ، ونفطويه ،
وابن المرزبان ، والأخفش الأصغر الذي سترى له مع ابن الرومي شأناً في
الهجاء . . . ونرى من اللغويين الهروي ، والسجستاني ، وأبا العباس المبرد
صاحب كتاب الكامل ، والمفضل - وهو غير المفضل الضبي الأديب
الراوي - وابن دريد صاحب المقصورة المشهورة ، وعبد الرحمن الهمداني
صاحب كتاب الألفاظ الكتابية .

ونرى من مؤرخي ذلك العصر : البلاذري صاحب كتاب فتوح البلدان ،
ومحمد بن حبيب الأخباري ، وعمر بن شبة ، وابن طيفور صاحب تاريخ
بغداد ، واليعقوبي ، وأبا حنيفة الدينوري صاحب كتاب الأخبار الطوال ،
والطبري . ونرى من الجغرافيين ابن خرداذبة ، وابن الفقيه ، وابن الحائك .
وقد اجتمع في ذلك العصر طائفة من الشعراء منهم علي بن الجهم ،
والحسين بن الضحاك ، ودعبل ، والبحثري ، وابن المعتز ، والبسامي البغدادي ،
والخبز أري ، وابن العلاف . ولا ننسى أبا تمام الذي توفي حين كان ابن الرومي
في سن العاشرة . . .

هؤلاء هم بعض الرجال المثقفين الذين عاصرهم شاعرنا ، وقد يكون
لucky بعضهم ، وقد يكون سمع عن بعضهم ، ولكن الذي لاشك فيه أنه
انصهر في بوتقة ذلك العصر ، وأنه صنع في معمله العجيب ، الخليط من قديم
وحديث ، ومن دين وفلسفة . فأخذ من هذا وذاك ، وشارك في هذه وتلك
من ألوان الثقافة في عصره . ولا نجد هنا أصدق من أن نأخذه بقوله هو
عن نفسه :

إن أكن غير مُحسن كل ما تط
لب إني لمحسن أجزاء
فمتي ما أردت طالب فحص
كنت ممن يشارك الحكماء
ومتي ما أردت قارض شعر
كنت ممن يساجل الشعراء
ومتي ما خطبت مني خطيباً
جل خطبي ففاق بي الخطباء
ومتي حاول الرسائل رسل
بلغتني بلاغتي البلاء

وقد يقال إن ابن الرومي هنا في هذه الأبيات قول ، أمّا هنا

مثال لتأثره بثقافة عصره ؟ والجواب حاضر ! فإن مثلاً واحداً يحضرنا من أمثلة كثيرة ، وهو أبياته في تعليل بكاء الطفل ساعة يولد . ففيها فكر وفلسفة ومنطق ، وفيها صفات العقلية الجديدة التي تميز شعراء عصره من سابقهم^(١) . ولا ندري على سبيل اليقين على أى نحو استقى ابن الرومي معارفه وثقافته عصره ؟ ولكن في أخباره أنه كان يختلف إلى الأخبارى المؤرخ محمد بن حبيب ، وهو نسابة راوية على الطراز القديم . أما الثقافات الحديثة فمن المحتمل أنه أخذها من الكتب ، وقد كان له بها ولوع وغرام ، وكان يرى فيها المصباح الذي يضيء ظلام العقول . فقد استعار منه ابن المعلى كتاباً وأضاعه ، فعاتبه الشاعر بقوله :

منحتك مصباحاً فأعشاك ضوؤه وقد كان ظني أنه سيريكاً^(٢)

وذكر عنه فيلسوف المعرة أبو العلاء في رسالة الغفران أنه « كان يتعاطى علم الفلسفة »^(٣) واستعار من أبي بكر السراج كتاباً^(٤) . فهو صاحب مكتبة يعير الكتب ويستعيرها ، وهو يتعاطى الفلسفة كما يروي الشاعر الفيلسوف . على أن اشتغاله بتعاطى الفلسفة لم يُذهب مذهب الفلاسفة ، ولم يبعد به عن طريق الموحدين الناجين من وساوس الشك وزعازع الريب . وقد

عبر هو عن هذا في أبياته التي يمدح بها أبا سهل بن نوبخت بقوله :

ويُدمج أسباب المودة بيننا مودتنا الأبرار من آل هاشم
وإخلاصنا التوحيد لله وحده وتذيينا عن دينه في المقاوم
بمعرفة لا يقرعُ الشك بابها ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير في كل شبهة بها حجة تعي دُهاة التراجم^(٥)

MAK A. 2555
102!

(١) « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » لشوقي ضيف ص ٩٥

(٢) « ابن الرومي » لعباس محمود العقاد ص ١٠٠

(٣) « رسالة الغفران » للمعري تحقيق بنت الشاطيء ص ٤١٩ . وانظر الرسالة بشرح كامل

(٤) ص ٢٦٦

(٥) « ابن الرومي » للعقاد ص ١٠١

الفصل الثاني

ابن الرومي في عصره

٢٢١ - ٢٨٣ هـ ، ٨٣٦ - ٨٩٦ م

١ - أخباره في كتب التراجم والأدب

لم يصادف شاعر من شعراء العربية ما صادفه ابن الرومي من إغفال كثير في كتب الأدب والتراجم والتاريخ والطبقات . وهو إغفال قد يكون مقصوداً كما يبدو مما فعله معه أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني . وقد يكون غير مقصود كما يبدو في كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه الأندلسي ، وقد كان معاصراً لابن الرومي وعنى في كتابه بأدب المشاركة أكثر مما عنى بأدب المغاربة^(١) . ويذكر كامل كيلاني أسباباً وجيهة في إغفال صاحب الأغاني لابن الرومي^(٢) ، منها هجاؤه وإقداعه لأناس نزلوا منزلة الحب والأستاذية لأبي الفرج الأصبهاني كالبحتري والأخفش الذي تتلمذ عليه مؤلف كتاب الأغاني . ولكننا لا ندري لماذا لم يترجم له ياقوت الحموي في كتابه الكبير « معجم الأديباء » ، ولا أبو البركات الأنباري في كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأديباء » مع أنه ترجم لكثير ممن هم دون ابن الرومي مكانةً وجدارةً . لعل سوء حظ ابن الرومي قد لحقه حتى في ترجمة حياته ، فإن صاحب « معجم الأديباء » لم يذكره إلا عرضاً في خلال ترجمته لأحمد ابن عبيد الله بن عمار^(٣) . أما ابن قتيبة - وكان معاصراً لشاعرنا - فلم

(١) مقدمة « العقد الفريد »

(٢) « صور جديدة من الأدب العربي » لكامل كيلاني ص ٢٠٨

(٣) « معجم الأديباء » ج ٣ ص ٢٣٤

يذكره في واحد من كتابيه : « الشعر والشعراء » ، و « عيون الأخبار » .
ولعل أطول ترجمة لابن الرومي هي ما جاءت في كتاب « وفيات الأعيان »
لابن خلكان ، فقد بلغت قرابة صفحتين من قطع هذا الكتاب الكبير ،
أما بقية أخباره فنجلدها مبعثرة ، نتفة هنا ونتفة هناك . والطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ
لم يذكر شيئاً من أخبار شاعرنا في « تاريخه الكبير » ، على حين أن المسعودي
صاحب « مروج الذهب » المتوفى سنة ٣٤٦ يذكر مصرعه على يد القاسم
ابن عبيد الله ويشهد له بالتجويد وخلق المعاني . ثم يأتي بعد ذلك المرزباني
المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه « الموشح » فيترجم له في سطور ، ثم يترجم له ترجمة
أطول في كتابه « معجم الشعراء » فيصور لنا افتنانه في أجناس الشعر ،
ويجعله في الهجاء مقدماً لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره ، ويذكر لنا
علته السوداوية التي كانت تتحرك عليه فتغير منه . . . ، ثم نراه بعد ذلك
في « الفهرست » لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ حيث يذكر ديوانه الذي
رواه عنه المسيبي ورتبه الصولي على الحروف .

فإذا انتقلنا إلى القرن الخامس وجدنا طرفاً من أخباره في كتاب « زهر
الآداب » للحصري القيرواني المتوفى سنة ٤٥٣ ، ورأينا الشريف المرتضى
المتوفى سنة ٤٣٦ يذكر طرفاً يسيراً من أخباره ومقتله في « أماليه » ، ورأينا
أبا العلاء المعري في « رسالة الغفران »^(١) يشير إلى أدبه وعقله وتشيعه ومقتله ،
كما نرى ابن رشيق في كتابه « العمدة » يذكر بعض حوادثه ووقائعها وتطييره ،
على حين أن ابن شرف القيرواني معاصر ابن رشيق ومواطنه والمتوفى سنة ٤٦٠
يصفه في بضعة أسطر في كتابه « رسائل الانتقاد » ، كما نرى مؤرخ بغداد
وصاحب تاريخها الكبير : الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ يترجم له ترجمة
طويلة ، ويذكر بعض أخباره وحوادث تشاؤمه في قرابة أربع صفحات من
كتابه الضخم « تاريخ بغداد » . فإذا ما بلغنا القرن السادس وجدنا ابن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ يترجم له في وفيات سنة ٢٨٣ هـ في كتابه « المنتظم » .
وفي القرن السابع يذكره المؤرخ ابن طباطبا في كتابه « الفخرى » وهو يتحدث
عن وزارة إسماعيل بن بلبل وعن مبدأ العداوة بينه وبين الشاعر . كما نجد
المؤرخ ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر شاعرنا في وفيات سنة ٢٨٣ هـ .

(١) « رسالة الغفران » تحقيق بنت الشاطيء ص ٤١٩

وفي القرن الثامن نجد المؤرخ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ يترجم لابن الرومي ويذكر بعض شعره في كتابه « البداية والنهاية ». وفي القرن التاسع نجد المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ يترجم لشاعرنا في وفيات سنة ٢٨٣ هـ ترجمة في أكثر من صفحة من الكتاب . فإذا ما مضى بنا البحث إلى القرن العاشر وجدنا عبد الرحيم بن أحمد العباسي^(١) المتوفى سنة ٩٦٣ هـ يذكره في كتابه « معاهد التنصيص » فيترجم له ويذكر طرفاً من أخبار تطيره ونوادره مع الأخفش . وفي القرن الحادى عشر نجد ابن العماد الحنبلى المؤرخ المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ يذكره في كتابه « شذرات الذهب » في وفيات سنة ٢٨٤ هـ ويذكر روايتين من روايات مصرعه .

هؤلاء هم الذين ترجموا لابن الرومي أو ذكروا بعض أخباره في القديم ، على أن بجانبهم جماعة من الأدباء والنقاد استشهدوا بشعره أو عرضه على محك النقد ، كأبى على القالى في « الأملى » ، وأبى هلال العسكري في « الصناعتين » و « ديوان المعاني » ، وابن أبى عون^(٢) في كتابه « التشبيهات » ، وبديع الزمان الهمداني في مقاماته ، والجرجاني في « الوساطة » ، وابن الشجرى في « الحماسة » ، وابن الأثير في « المثل السائر » ، والثعالبي في « خاص الخاص » ، والشريف المرتضى في « الشهاب في الشيب والشباب » ، وابن سنان الخفاجى في « سر الفصاحة » ، وأبى حيان التوحيدى في « الإمتاع والمؤانسة » ، والنويرى في « نهاية الأرب » ، والعاملى في « الكشكول » ، والعزولى في « مطالع البدور » ، ويحيى بن حمزة العلوى في « الطراز » .

وقد ذكروا أن ابن عمار معاصر ابن الرومي وصديقه عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره ، وجلس يمليه على الناس . كما ذكر المستشرق الفرنسى كليمان^(٣) هيوار أن الخالدين كتبوا ترجمة حياة لابن الرومي ، وهما من أدباء القرن الرابع الهجرى . فما مصير هذه التراجم ؟ لعل الزمان أسدل عليها ستار النسيان .

(١) هذا هو صواب اسمه لا كما ذكر خطأ في « ابن الرومي - حياته من شعره » ص ٧٠
(٢) من علماء القرنين الثالث والرابع وقد جمع في كتابه النفيس المطبوع بكامبريدج سنة ١٩٥٠ أكبر عدد من تشبيهات ابن الرومي .

(٣) في كتابه الفرنسى ص ١٨٥ . وقد ذكر أحمد حسن الزيات في كتابه « تاريخ الأدب العربى » ص ٢٧٠ أن الذى كتب هذه الترجمة هو أبو سعيد الخالدى ، وقد نقل ذلك خطأ عن هيوار الذى يقول إن الأخوين الخالدين هما الكاتبان لترجمة ابن الرومي لا واحد منهما .

٢ - نسبه بين الروم والفرس

لقد ذكر الذين ترجموا لابن الرومي أو تحدثوا عنه في زماننا أبياتاً قالها الشاعر لا تدع مجالا للشك في أصله الرومي . والعقاد صاحب فضل كبير في هذا الميدان ، إلا أنه قد وقعت لي تورية لطيفة للشاعر ذكرها العامل في كتابه « الكشكول » حيث يقول :

ورومية يوماً دعني لوصلها ولم أك من وصل الأغاني بمحروم
فقلت : فدتك النفس ما الأصل ؟ إنني أريد وصالا منك ؟ قلت لها رومي !

فإذا أضفنا هذا النص الطريف إلى بضعة النصوص التي ذكرها العقاد ، وخاصة قوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجي ومجد وعيدان صلاب المعاجم

خرجنا بما يشبه اليقين بأن شاعرنا رومي من ناحية أبيه . وإذا كان اسم جده جريج أو جورجيس كما ذكر ابن خلكان ، فإن المسعودي يسميه سريجاً ، ولعلها تحريف في الطبع أو النسخ . وهذا الاسم اليوناني يضاف إلى مجموع الأدلة على رومية الشاعر . وليس غريباً أن يكون ابن الرومي رومي الأصل في عصر كثر فيه الموالي والحواري من الروم . فلقد كان بلط ابن طولون في مصر يعج ويضيق بالعبيد من الروم^(١) ، فما بالك ببلاط بغداد ، وقد كانت الحروب بينها وبين الدولة البيزنطية سبباً في كثرة الرقيق ؟

على أن ابن الرومي الشاعر العربي الكبير عريق في العجمة من ناحية أبويه ، فأمه « حسنة » بنت عبد الله السجزي من إقليم سجستان كما يذكر المرزباني في « معجم الشعراء » ، فهي فارسية قح^(٢) . وإذا كانت بلاد الروم قد أمدت الدولة العربية الإسلامية بالحواري والقيان وأمهات الخلفاء ، فإن

(١) « ظهر الإسلام » ج ١

(٢) « الغدير » للشيخ عبد الحسين الأميني ج ٣ ص ٣٣ . طبعة النجف

الفرس أمدت العرب برجال السياسة والإدارة والوزارة ، ولهذا نجد أكثر ممدوحى ابن الرومى من الفرس من أمثال بنى طاهر ، وآل المنجم ، وآل نوبخت ، وأبى القاسم التوزى وغيرهم . ولقد كان تأثير اليونانية فى شعر ابن الرومى موضع خلاف فى رأى بين النقاد ، فالعقاد يغالى فيه ، وطه حسين يرى من الحق أن لا نغلو فى نسبة خصائص ابن الرومى إلى أصله اليونانى^(١) .

٣ - صورته الجسمية

الحق أن اللوحة التى صورها العقاد لشخص ابن الرومى لا تقل براعة ولا جدوة عن اللوحة الدقيقة التى رسمها لشخصيته ؛ فقد صور له برأسه الصغير المستدير ، وبنظرته الساهمة اللائح عليها الوجوم ، وبنحوه الذى تبين فيه العصبية ، وبلحيته الكثية ، وبالصلع والشيب الذى عجل إليه فى شبابه ، وبينائه الضعيف الذى اصطلحت عليه العلل والأسقام ، وبمشيته المختلجة التى هى ثمرة لاضطراب أعصابه ، وبظهره المتقوس حين ألحت عليه الشيخوخة . ولعل وصف المرزبانى لليلة السوداء التى كانت تتحرك على الشاعر يترك للخيال أن يذهب بعيداً فى تصور ابن الرومى وهو فى حالات غضبه واضطراب نفسه . وقد صور له الخطيب البغدادي متعمماً متدرباً وهو يتردد على دار الوزير القاسم بن عبيد الله للمنادمة^(٢) . فلم كان شاعرنا يتعمم ؟ لقد كفانا هو مثونة الرد على هذا السؤال حين أجاب من سأله : لم تلزم العمه ؟ فقال :
يا أيها السائلى لأخبره عنى لم لا أزال معتجراً^(٣)
أستر شيئاً لو كان يمكنى تعريفه السائلين ما ستر^(٤)

(١) « من حديث الشعر والنثر » لطف حسين ص ٢٣٦ . وانظر أيضاً « الرؤوس » لمارون عبود ص ١٤١ ، و « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » لشوق ضيف ص ٩٣ ، و « ابن الرومى » للعقاد ص ٣٠٨

(٢) « تاريخ بغداد » ج ١٢ ص ٢٣

(٣) أى لابساً العمامة

(٤) « جمع الجواهر » ص ١٦

ويذكر القيروانى فى « جمع الجواهر » أن شاعرنا كان أقرع الرأس ، وقد أخبر بعللة ذلك فى قوله :

تعممت إحصاناً لرأسى برهة من القر يوماً والحرور إذا سفع
فلما وهى طول التعمم لمتى فأزرى بها بعد الأصالة والفرع^(١)
عزمت على لبس العنامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلغ^(٢)

وقد استظهر العقاد أن ابن الرومى كان أبيض اللون « فذلك غير عجيب فى رجل له جلد من الفرس وجلد من الروم »^(٣) . ولكن ابن الرومى يأبى إلا أن يحيرنا دائماً ، فقد وقعت على نص عجيب لم يذكره مترجم لابن الرومى ، وجاء فى « معجم الشعراء » للمرزبانى ، وفيه أن شاعراً اسمه « فرسان العمى » قال يرد على ابن الرومى فى مراثيته الجيمية للشهيد يحيى بن عمر العلوى :

قد سود الله بعد القلب صورته فوجهه مظلم الأمطار كالسبج^(٤)
فالهاجى هنا يصف شاعرنا ابن الرومى المهجو بسواد الصورة وإظلام الوجه^(٥) !

ليكن ابن الرومى أبيض الوجه أو أسوده ، وليكن طويل القامة أو قصيرها ! ولكن الذى لن يكون أنه كان مستوى النفس معتدل المزاج ، فقد كان فيه من المتناقضات ما سنعرضه فى صورته النفسية ، وما يجمع لنا متناقضات عصر ابن الرومى فى إنسان !

٤ - صورته النفسية

١ - التناقض والاضطراب :

لعل شخصية لم تجتمع لها طائفة من المتناقضات النفسية كشخصية ابن الرومى . فهو رجل غريب الأطوار والأدوار ، لا يستقر على حالة واحدة

(١) الفرع : طول الشعر

(٢) « جمع الجواهر » ص ١٧

(٣) « ابن الرومى » للعقاد ص ١١٠

(٤) السبج : بفتح السين والباء الحرز الأسود

(٥) « معجم الشعراء » ص ٣٢٠

من حالات النفس المستقرة الثابتة . تراه يمدح اليوم إنساناً ثم لا يلبث أن يذمه غداً ، وتراه يمدح هذا الزهر أو هذه الفاكهة اليوم ثم لا ينفك أن يذمهما بعد اليوم . لقد مدح المشمش ، ووصفه بأنه قشر من الذهب المصنفي حشى بالشهد اللذيذ الطعم ، ثم ذمه في أبيات أخرى بأن كل غصن من أغصانه يغل مريضاً . . . (١) وذم البخل كأكره ما تكون الصفات في الإنسان ، ثم عاد فمدحه والتمس للبخل عذراً في بخله حين قال :

لا تلم المرء على بخله وله يا صاح على بذله
لا عجب بالبخل من ذى حجى (٢) يكرم ما يكرم من أجله

وقد يقال إن الزهر والورد والفاكهة والبخل لا تدرى في ذاتها بمن مدحها أو هجاها ، ولكن ما ظنكم بالإنسان العاقل المتذكر يمدح اليوم فيرفع إلى الأوج ، ويذم غداً فيهبط إلى الخضيض ؟ ما ظنكم بالأخفش وقد هجاه ابن الرومي فأفحش ، ثم عاد يمدحه أقصى المدح ويصفه بأنه بحر من بحور العلم ، يرده الظماء إلى الصواب فيسقيهم عللاً وفهلاً ؟ وما ظنكم برجل كابن عمار وكان صديقاً وصنيعة لابن الرومي ، فنراه وقد انقلب عليه يهجو مر الهجاء ؟ مع أن ابن عمار لما مات الشاعر عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره ، وجلس يمليه على الناس ؟ (٣)

ماذا نقول في متناقضات ابن الرومي وجمعه بين الأضداد من الأشياء ؟ أنقول إن ذلك راجع إلى طبيعته المتناقضة وأعصابه المضطربة ؟ أم نقول مع متلمس العذر له إن أحوال الناس والحياة هي التي دفعته إلى التناقض ، فليس به من حسد ولا حقد على الناس حين يحسد ، وإنما هو سخط على ظلم الحظوظ (٤) ؟ أم نقول إنه كان طفلاً كبيراً في حدة الطمع وقلة الحيلة وحب النفس ، فلم يكن حاسداً ولا شبيهاً بالحاسد (٥) ؟ أم نقول مع البلاغيين إن

(١) « نهاية الأرب » ج ١١ ص ١٤١ ، ١٤٢

(٢) الحجى : العقل

(٣) « معجم الأدباء » لياقوت ج ٣ ص ٢٣٩

(٤) « حصاد الهشيم » للمازني ص ٢٦٨

(٥) « ابن الرومي » للعقاد ص ١٤٦

الصنعة غلبت عليه ، فاستعمل « التلطف » وهو أن يعتمد الشاعر أو الكاتب إلى المعنى الحسن فيهجته ، وإلى المعنى الهجين فيحسنه ^(١) ؟ أم نقول إنها روح المخالفة للمألوف المصطلح عليه ، حتى يعرف الإنسان على سبيل التخالف لا على سبيل التوافق ؟ فالناس يذمون الحقد وابن الرومي يمدحه ، والناس يمدحون الورد ، ولكن ابن الرومي يذمه ويهجو به بشر ما يكون من تشنيع الصورة وتشويه الجمال .

وقد يكون مدح ابن الرومي للحقد نتيجة للتقليد والسرقة من غيره ، فقد روى صاحب ^(٢) « زهر الآداب » كلاماً لعبد الملك بن صالح في الاحتجاج للحقد ، ثم نسب إلى ابن الرومي أنه أخذ هذا المعنى من عبد الملك وزاد فيه في أبياته الضادية ، ثم ذكر بعد هذا أبياتاً يرد بها على نفسه ويذم ما مدح توسعاً واقتداراً والتوسع والاقتدار هنا هما الصنعة البديعية البلاغية ، لا التعبير الصادق الصحيح عن الحقد ممدوحاً أو مذموماً

ولعل حسد ابن الرومي للناس هو الرد الوحيد على حسد الناس له . فهو يعاملهم بمثل ما يعاملونه به . . . وعلام يحسده الناس ولم يكن شاعرنا المسكين موضعاً للحسد ؟ ألم يقل هو في قصيدته لأبي الصقر :

أيها الحاسد على صحبتي العس ر وذمى الزمان والإخوانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه أيها الظالمى إخوانى عيانا ؟

وعلام يحسده ابن الرومي وقد رأى غيره من الأدنياء يرتفعون وينعمون ، وبيته بيت مسكنة قد عشن الفقر فيه :

أبعد ما اقتطعوا الأموال واتخذوا حداثقاً وكروماً ذات تعريش ^(٣)
يحاسدونى وبيتى بيت مسكنة قد عشن الفقر فيه أى تعشيش ؟

إن شبك ابن الرومي في الحياة كانت غير صائدات ولا ظافرات بالصيد السمين . على حين أن غيره من معاصريه لم يجهد نفساً ولم يلق شباكاً ألبته ، ثم جاءهم الثراء والجاه العريض والدنيا المقبلة . ومن هنا كان سخطه وحقده ،

(١) « الصنائع » لأبي هلال ص ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٢) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٦٦٠

(٣) « أمراء الشعر العربي » لأنيس المقدسى ص ٢٥٠

لقد كان يمدح فلا ثياب ، ويذكر المحاسن فلا يستمع له ، بل قد يُردُّ عليه مديحه ويقال له : خذ شعرك فامدح به غيرنا . . . كما فعل معه ابن المدبر ،

فلماذا لا يغضب ولماذا لا يطيل ألسنته في الناس ؟

واعجب ما في ابن الرومي أن حقه وحسده جنيا عليه في حياته ، ولكنهما وجدا بعد مماته بزمان طويل من يحتج لهما ويدافع عنهما^(١) . حتى لقد قالوا إن حقه هو سبب عبقريته . . . وإن حقه بين الشعراء كحقه أبي حيان التوحيدي بين الكتاب^(٢) . . . ويلتمسون المعاذير لحقه بأنه رأى من فساد الناس والمجتمع ما رآه أبو حيان ، الذي قهرته أحداث دهره على المشي فوق الأشواك^(٣) . إلا أن الفساد عندي لا يكون مسوغاً لحقه الحاقده ما لم يكن ذلك من طبيعة نفسه . فقه يفسد المجتمع ويتحلل ، ولكن العاقل البريء يخلص منه بالسلامة ، لا بالإيغال في الحقد مع الحاقدين . . .

وإذا كان ابن الرومي يحب الحياة حقاً كما يقال في الدفاع عنه ، فلماذا لم يقبل الحياة بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ؟ ولماذا يريد لها خالصة من الأقداء ؟ ولماذا يسخط على الواجدين والمجدودين من أصحاب الخطوط ؟ ألم يكلفه ذلك ثمناً غالياً ، حين وقف بكل باب ، واستجدى كل إنسان ، وقصد الكريم والثلثم على حده سواء ؟ ثم ألم يعبر هو عن نفسه أصدق تعبير حين قال : أسخطت إخواني وأخفقت مطمعي فبقيت بين الدور والأبواب^(٤)

ب - التشاؤم والتطير

هناك من الناس من يتفاءلون بشيء ويتشاءمون من آخر ، ولكنهم لا يجعلون من ذلك شغلاً شاغلاً وهمماً ناصباً . . . فكان النبي عليه السلام يتفاءل ويحب الاسم الحسن^(٥) ، ولكنه لم يكن يتطير أي يتشاءم . ولم نجد أمراً في تاريخ الأدب العربي جاهليته وإسلامه بلغ منه التطير ما بلغ من ابن الرومي . . . حتى لقد تعابث به أصحابه وتندروا عليه ، وجعلوه سخرية وهزواً بالليل والنهار .

(١) « حصاد الهشيم » للمازني ، و « ابن الرومي » للعقاد

(٢) « النثر الفني في القرن الرابع » لركي مبارك ج ٢ ص ١٣٣

(٣) المصدر السابق ص ١٣٧

(٤) « ديوان ابن الرومي » شرح الشيخ محمد شريف ص ٣٤٦

(٥) « العمدة » ص ٣٩

وقد استطاع الأخفش أن ينال منه في ذلك كثيراً ، فكان يرسل من يقرع عليه باب داره ببيكرة ويتسمى له بأقبح الأسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف طول يومه ^(١) . بل تجرأ عليه كل إنسان في بغداد غير الأخفش ، وطالعه بما يكره من الأسماء والألقاب والأوصاف حتى يثيروا طيرته وتشاؤمه ، فيحبس نفسه في بيته ولا يخرج . ولعل العابثين قصدوا من ذلك إثارتة والعبث به وحبسه في البيت حتى يتجنبوا مطالع وجهه . . . فالطيرة هنا كانت شعوراً مشتركاً بينه وبينهم . . . هم يتطيرون منه وهو يتطير منهم ! .

والحق أن عصر ابن الرومي نفسه مسئول إلى أكثر حد عن شيوع الشؤم والطيرة في نفسه . فترى الناس فيه يتفاءلون بأشياء ، ويتشاءمون من أشياء . فقد كان يقال عن ابن الجهم المعاصر له إنه « طيرة الشؤم وفأل التلف » ^(٢) . وكان الناس في ذلك العصر يؤمنون بقدرة الكواكب والأفلاك على التحكم في مصائرهم . . . والبحترى الشاعر ومعاصر ابن الرومي كان يؤمن بأن الليالي تعكس حظوظ الأشياء ، فقد بات المشتري في إيوان كسرى وهو كوكب نحس ^(٣) . وأكثر من هذا ألم يكن خلفاء بني العباس يستشيرون المنجمين فينظرون في أحوال الفلك وهيئات اقتران الكواكب ثم يشيرون على الخلفاء بما يعملونه وبما لا يعملونه ^(٤) ؟

قلنا إن ابن الرومي كان يتشاءم من الناس والأسماء والأحداث ، كما كان الناس يتشاءمون منه . . . حتى اعتقدوا أنه منحوس ، وثبت في يقينهم أنه رجل مشؤم على من يراه ، وأنه يجب أن يجانب ويحاشى حتى لا يصيب الناس برشاش نحسه . وقوله لعبيد الله بن طاهر :

نحن ميامين على أننا على أعاديك مشائم
يدل على أنه كان موضع الاتهام بالشؤم والنحس ، فهو يؤكد للمدوح أنه — أى الشاعر — سعد عليه ، ونحس على أعدائه .

(١) « العملة » ج ٢ ص ١٣٦

(٢) « التشبيهات » لابن أبي عون طبعة كامبريدج ص ٢٩١

(٣) « ديوان البحترى »

(٤) « تاريخ تمدن الإسلامى » لزيدان ج ٣ ص ١٨٩

وقد يضاف إلى علة العصفري تطير ابن الرومي وشؤمه وتشاؤمه ، علة الشاعر نفسه . . . فقد كان مريضاً ضعيف الأعصاب ، وكانت به علة سوداوية تتحرك عليه كما قال صاحب « معجم الشعراء » ، وكان أدبه أكثر من عقله كما قال أبو العلاء المعري^(١) ، أى أن خياله أكثر من قوة العقل والتحليل فيه ، فهو لا يعمل الأشياء بعقلها الطبيعية ، ولكن بعقل يخلقها الوهم أو الخيال أو ضعف الأعصاب أو المرض النفسى . وما رأيت شاعراً سخر من شاعر كما سخر أبو العلاء المعري من ابن الرومي لتطيره . . . فقد جعل ابن الرومي اسم « جعفر » من الجوع والفرار . . . وكان يتشاءم منه ، فيسخر منه المعري ويقول : لو هدى ابن الرومي لصرف اسم جعفر إلى النهر الجرار ، لأن الجعفر هو النهر الكثير الماء ، ولكن إخوان هذه الخليفة ، لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة^(٢) .

ج - حيوانية ونهم :

كان ابن الرومي إنساناً أحب الحياة وتشبث بها إلى أبعد الحدود ، ولكنه غالى حتى أوردته حب الحياة إلى حيوانية متطرفة . . . فهو منهوم فى المآكل والمشارب نهماً جعل المؤرخين والمترجمين لا يغفلون عن ذكر هذه المزية أو المساءة فيه ! فالمؤرخ المسعودى يقول عنه إنه كان شرهماً نهماً^(٣) ، وصاحب « جمع الجواهر فى الملح والنوادر » يقول عنه إنه كان منهوماً فى المآكل ، وهى التى قتلتها . . . وكان معجباً بالسماك ، فوعده صديقه أبو العباس المرندى أن يبعث له كل يوم براتب من السمك لا يقطعه ، ثم قطعه ، فكتب إليه الشاعر شعراً يعاتبه فيه^(٤) . . .

ولقد تحير ابن الرومي المنهوم بين داعى شهوة الطعام وداعى فرض الصيام فى رمضان ، وهو فرض يحرمه لذات الطعام والشراب من ساعة الإمساك إلى

(١) « رسالة الغفران » شرح كامل كيلانى ص ٢٦٥

(٢) « رسالة الغفران » ص ٢٨٥

(٣) « مروج الذهب » ج ٤ ص ٢١٥

(٤) « جمع الجواهر » ص ٢٩٠

مغرب الشمس ، فرأيناه يهجو شهر رمضان هجاء لم نسمعه من شاعر مسلم . . .
وقد يهجو رمضان في الخفاء والسر ، أما أن يهجو علانية وفي شعر معاد مكرور
فذلك اجترأ لا يصدر إلا عن مثل ابن الرومي الهجاء الذي لم يسلم منه مخلوق . . .
وإذا كان الناس يبارك بعضهم بعضاً بشهر الصيام فإن ابن الرومي لا يبرك به
ولا يرحب بمقدمه ، ويقول :

إذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب؟
فليت الليل فيه كان شهراً ومر نهاره مر السحاب
فلا أهلاً بمانع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب!

الحق أن الشهوة البطنية عند ابن الرومي تعبر عن نفسها تعبيراً صارخاً حين
يصف لنا الموائد وما عليها من صحاف ، وما فوق الصحاف من أطايب الطعام .
فوصفه للسمك الأبيض كمثل سبائك الفضة ، ووصفه للوزينج الذي كان
يستهديه من ابن بشر ، ووصفه للدجاجة التي ظل يقشر جلدها المحمر الأحمر
عن لحمها الأبيض فكأنه يقشر تبراً عن لجين . . . ووصفه للقطائف التي
ترضى الخلق والحناجر . . . ووصفه للعنب الرازق بأنه مثل مخازن البلور
لصفائه وشفافيته وأن له مذاق العسل ، ونفحة المسك ، ورقة الماء على الصدور ،
ووصفه للفطائر والرقاق والزلابية . . . كل أولئك يدل على أن شهوة البطن كانت
غالبة على ابن الرومي ، وأنه كان يتمتع بمناغم الطاعم والشراب سواء رآها — كما
رأى صانع الزلابية — أم استهداها ، أم أكلها على موائد المجدودين من أثرياء
عصره ! ولم يكن نهماً بالطعام فقط ، بل كان للخمر نصيب من معدته ومن
شعره ! ولعله كان يشرب الخمر تسلياً على هموم الدهر وتشاغلا عن أحداثه (١) .
ولقد أتى ابن الرومي من ناحية نهمة ومعدته . . . فقد ذكر — على اختلاف
الروايات في مصرعه — أنه مات مسموماً . ، وأن السم دس له في خشكناجعة (٢) .
فكان مصرعه في شهوته بالطعام . . .

(١) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٨٩٧

(٢) نوع من الكعك بالفارسية

٥ - تدينه وتشيعه

يقول صاحب موسوعة « الغدير » ^(١) إن ابن الرومي له في مودة ذوى القربى من آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم أشواط بعيدة ، واختصاصه بهم ومدائحه لهم ودفاعه عنهم من أظهر الحقائق الجلية . وابن الرومي متشيع سواء أكان ذلك بقصيدته الغديرية التي ذكرت في كتاب « مناقب ابن شهر آشوب » ج ١ ص ٥٣١ طبعة إيران ، أم بقصيدته القوية المتفجعة التي رثى بها الشهيد يحيى بن عمر العلوى الذى قام على العباسيين فقتلوه ^(٢) ، أم بقصيدته النونية التي علل فيها العلويين بالصبر حتى يهلك الله أعداءهم العباسيين . وليس عجيباً أن يصرح ابن الرومي بعدايته لبني العباس وبتشيعه للعلويين مع أن أباه كان مولى لرجل من بيت العباسيين ، كما كان ممدوحه من كبار رجال العباسيين وأقطاب دولتهم ، فإن فكرة التشيع متى رسخت لا يبالي في سبيلها بالشهادة ، على الرغم مما عندهم من الأخذ بالتقية . وليس أدل على ثبوت هذه الفكرة من أن ابن الرومي نظم مرثيته الرائعة الفاجعة في الشهيد يحيى بن عمر ، وهو يعلم أنه سيثير بها سخط الخلفاء وسخط القادة الذين حاربوا الشهيد وقتلوه وجلسوا يتقبلون التهئات بمقتله ، فعز ذلك على رجل من ولد جعفر بن أبي طالب ، فقال مخاطباً محمد بن عبد الله بن طاهر : أيها الأمير : إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزى به ^(٣) . . . ومن عجب أن يكون هذا القائد هو ممدوح ابن الرومي أو هو الذى رثاه ابن الرومي حين مات بعد مقتل الشهيد يحيى العلوى بثلاث سنوات . وأعجب العجب من شاعرنا أنه كان يقصد ابن طاهر حين قال :

ألا أيها المستبشرون بيومه أظلت عليكم غمة لا تفرج !
لأن ابن طاهر هو الذى فرح واستبشر وجلس للهناء بمصرع الشهيد ،

(١) الغدير » ج ٣ ص ٣٠

(٢) « أمراء الشعر » للمقدسى ص ٢٧٣

(٣) « الفخرى » ص ٢١٩

ثم يعود ابن الرومي بعد ثلاث سنوات فيرثي ابن طاهر نفسه حين يموت . أهو وفاء منه لابن طاهر لأنه كان ولياً لنعمة الشاعر هو وأهل بيته ؟ فقسا عليه حين نادته العقيدة الشيعية يوم مقتل الشهيد ، وقضى له واجب الوفاء برثائه يوم مات ؟ والحق أنه لا وجه لإثارة الشك في تشيع ابن الرومي كما صنع أبو العلاء المعري في رسالة الغفران . فهو يقول « إن البغداديين يدعون أنه متشيع ، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية ، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء »^(١) . وقد عدّه ابن الصباغ المالكي في « فصوله المهمة » ، والشبلنجي في « نور الأبصار » من شعراء الإمام الحسن العسكري^(٢) . وإذا أعوزنا شاهد آخر على تشيعه فإنه يحضرنا الآن نص للوزير أبي عبيد البكري (صاحب كتاب « اللآلئ في شرح أمالي القالي ») ، فإنه يقول عنه : « كان يتشيع للطالبيين ويبغض مواليه »^(٣)

وقد جمع ابن الرومي إلى التشيع الاعتزال ، وفي شعره ما يدل صراحة على ذلك ، والمعتزلة يقولون باختيار الإنسان لأفعاله وخلقه لها ، حتى يثبتوا لله العدل حين يحاسب الناس على أعمالهم التي ارتكبوها بمحض اختيارهم ، لا بطريق الجبر عليهم .

لقد كان ابن الرومي شاعراً مسلماً مؤمناً متديناً ، وما عرف عنه أنه اتخذ لنفسه مذهب الفلاسفة ، أو أنه تزندق ، أو كان ضعيف العقيدة مزعزع الإيمان ، مثل بشار بن برد ومن لف لفه من الشعراء . . .

٦ - معيشته وأحواله

١ - التكسب بالشعر :

في تاريخ الشعر العربي قديمه وحديثه أن شعراء اتخذوا من الشعر سبباً للكسب ، ووسيلة إلى العيش ، وصناعة لاجتلاب الرزق وإقامة الأود ،

(١) « الغفران » شرح كامل كيلاني ص ٢٦٨ ، ٢٧٣

(٢) « الغدير » ج ٣ ص ٣٠

(٣) « سمط اللآلئ » ج ١ ص ١٦٠

وأن شعراء آخرين أنفوا من التكسب بالشعر وعدلوا عن المدح حتى لا يتهموا في مروعتهم ... وأى نقص للمروعة ولجمال الشعر مثل أن يأخذ شاعر ثمناً على مدحه ، أو يجعل شعره سلعة للبيع والشراء ؟ لقد أخذ بعض الشعراء من الملوك كما فعل النابغة ، وأخذ بعضهم من الرؤساء كما صنع زهير بن أبي سلمى ، وتدننى الحطيئة وسقطت همته فأخذ ثمن المدح وفدية الهجاء من كل إنسان^(١) ... وكان الممدوحون يثيرون أجزل الثواب . فأين مكان ابن الرومي من هذا ؟ لقد كان المسكين على صلة بالرؤساء والوزراء ومدحهم فهل جمع من المديح مالا ؟ وفيه إذن كان أنين الشكوى والبؤس والحرمان في شعره ؟ إن في ديوانه ما يدل على أنه امتلك ضيعة ودارين وبعض التحف التي كان منها قدح كان للرشد ثم أهده الشاعر إلى علي بن يحيى المنجم . فلماذا الشكوى والسخط على الزمان ؟ إن في شعره ما يدل على أنه كان يعاني من ضيعته العناء^(٢) ، وأن الجراد قد أتى في بعض السنين على زرعه^(٣) . ولعله لم يؤث القدرة على استغلال ضيعته واستثمارها على خير الوجوه . ولقد روى لنا ابن تغرى بردى أن سائلاً سأل ابن الرومي لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ، فقال : « ذلك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن الخلفاء ، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به »^(٤) . فابن الرومي هنا يصرح بأنه يطلب الرزق بشعره ، ويتكسب بالمدح والهجاء . على أنه لم يبلغ من الكسب ما كان يريد . . . فقد قطع عنه الهجاء كريم العطاء . . . والناس لا يعطون المادح الهجاء إلا للاتقاء . . . وهنا يكون العطاء قليلاً ، والجزاء ضئيلاً . . .

وما ظنكم برجل شاعر كبير لم يكن يستجدي المال فحسب ، وإنما كان يستجدي كل شيء . . . فقد ذكر ابن أبي عون - وكان معاصره أو قريباً جداً من عصره - أنه هجا ابن دليل النصراني لأنه وعده نعلاً - أى حذاء - فأخلف . وأنه عاتب ابن سهل النوبختي لأنه قطع عنه راتباً من الدقيق كان يجريه عليه^(٥) . . . ولم ننس منذ قليل راتب السمك الذي كان يبعثه له كل

(١) « العمدة » لابن رشيق ج ١ ص ٥٢

(٢) « الديوان » شرح الشيخ شريف سليم ص ٤

(٣) « ابن الرومي » للعقاد ص ١٦٢

(٤) « النجوم الزاهرة » ج ٣ ص ٩٧

(٥) « التشبيهات » لابن أبي عون ص ٣٧٤ ، ٣٩٦

يوم صديقه أبو العباس المرثدى ثم قطعه .

وعلى الرغم من حبس ابن الرومي نفسه في داره اتقاء للشؤم والتشاؤم فإنه كان يجد له سبيلاً إلى موائل الكبراء ومجالسهم ، إلا أنهم كانوا يعدون ذلك منتهى الكرم منهم له والبر به . وكانوا يمنون عليه قبوله في مجالسهم ، كأنهم أوصلوه باللقمة يأكلها معهم إلى أقصى مطلوبه . . . ولعلمهم كانوا يتخذونه ضحكة وسخرية ومجالاً للعبث . . . فمنهم من يبعث له بالعبث إلى باب داره ، كما كان يفعل الأخفش وغيره معه . . . ومنهم من يحضر ابن الرومي نفسه إلى مجلسه أو مائدته ليطيب له العبث به كما يشاء . . . مسكين والله هذا الشاعر الواجد المحروم ، الظالم المظلوم !!

ب - مصرع الشاعر :

لقد كانت حياة ابن الرومي مجمعةً للمتناقضات ، فلم لا تكون وفاته مجمعةً للمتناقضات ؟ إن الرجل غرقان في التضارب والاضطراب من رأسه إلى قدمه ، ومن شبابه إلى هرمه ، فلم لا يكون موته حادثاً يقال على سبيل التضارب لا على سبيل الاتفاق ؟ وإذا تركنا الآن جانباً كيف لاقى منيته ، فإننا لن نترك الكلمات التي ردها على فراش الموت . فهي محل اختلاف بين الرواة . وبعض الناس يلاقون الموت صامتين فلا تنسب إليهم عبارة في آخر ساعاتهم من الدنيا وأول ساعاتهم من الآخرة . ولكن ابن الرومي نسبت إليه أقوال وأشعار . . . فالتوحيدى يروى عن أحد الرواة قوله : دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذى قضى فيه فأنشدنا قوله :

ولقد سئمت مآربى فكأن أطيبها خبيثُ

إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث^(١)

وأبو عثمان الناجم يروى أنه قال في علته الأخيرة وقد ألح به البول :

غداً ينقطع البول ويأتى الويل والعلول

إلا إن لقاء الله هول دونه الهول^(٢)

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ٢٧

(٢) رسالة ابن القارح ص ٣٥

والخطيب البغدادي يروي أنه قال وهو يجود بنفسه :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارد عن الإصدار
والناس يلحون^(١) الطبيب ، وإنما خطأ الطبيب إصابة الأقدار^(٢)
أما بهاء الدين العاملي فيروي أن ابن الرومي لما سم ودب السم فيه واشتد
شربه للماء أنشد :

أشرب الماء إذا ما التهبت^(٣) نار أحشائي كأحشاء الذهب
فأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

هذه هي الأقوال التي يعزى إلى ابن الرومي أنه قالها في ساعات نزعه ، وهي
مختلفة باختلاف الروايات في مصرعه . فابن خلكان يقول إن الوزير القاسم بن
عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الخليفة المعتضد كان يخاف من فحش
هجائه ، فدرس عليه ابن فراش فأطعمه خشكناجة مسمومة وهو في مجلسه ،
فلما أحس بالسم قام ، فقال له القاسم : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع
الذي بعثني إليه ، فقال له : سلم على والدي ! فقال : ما طريقي إلى النار !
ثم خرج من مجلسه ، وما لبث أياماً حتى مات .

هذه إحدى الروايات في مقتل شاعرنا ، وهي تدل على أن القاسم هو
سبب قتله ، ويضعف العقاد هذه الرواية ، لأن والد القاسم مات بعد ابن الرومي
ببضع سنوات ، فليس معنى لأن يقول القاسم له : سلم على والدي ! وهو
لا يزال حياً^(٤) ، إلا أن المؤرخ ابن طباطبا يقرر أن القاسم وزير المعتضد هو الذي
قتل ابن الرومي بالسم وكان منقطعاً إليهم - أي إلى آل وهب - يمدحهم
وكانوا يقصرون في حقه في بعض الأوقات فهجاهم^(٥) .

على كل حال فقد مات شاعرنا مسموماً سواء أكان بيد الوزير القاسم
أم بيد والده عبيد الله . . . ومات كما يروي ابن القارح وعند رأسه إناء فيه ماء

(١) يلحون : يلومون .

(٢) « تاريخ بغداد » ج ١٢ ص ٢٦

(٣) « الكشكول » للعاملي ص ٦٥

(٤) « ابن الرومي » للعقاد ص ٢٦٣

(٥) « الفخرى » ص ٢٣٢

مثلوج ، وخنجر مجرد ! وقد كان الخنجر ليعجل به موته لو ألحَّ به الألم ،
ولكنه مات بغير خنجر ويعلق الفيلسوف الشاعر المعري على هذا قائلا :
كم ظان أنه يهلك بسيف فهلك بـ خنجر ^(١) . . .

الفصل الثالث

جوانب ابن الرومي

١ - ديوانه

يقول ابن النديم صاحب « الفهرست » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، أى بعد ابن الرومي بقرن من الزمان ، إن شاعرنا كان له ديوان على غير الحروف رواه عنه المسيبي ، ثم عمله الصولي على الحروف ، وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ ، فزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت^(١) . وفي ابن خلكان أن الذي روى الديوان هو المتنبي لا المسيبي^(٢) ، وأغلب الظن أن ذلك خطأ في الطبع . وقد تابع مؤلفا كتاب « الوسيط » ابن خلكان في الوهم أو في التحريف المطبعي ، فقالا عن ابن الرومي : يكفيه فضلا أن يكون المتنبي أحد رواة ديوانه والآخذين عنه^(٣) . ولن يكون هذا لأن المتنبي ولد بعد وفاة ابن الرومي بعقدين من السنين .

ونرى ابن الأثير وهو يؤرخ لحوادث سنة ٢٨٣ هـ يذكر وفاة ابن الرومي ، ويقول إن ديوانه معروف^(٤) . أى أن ديوان شاعرنا كان متداولاً بين الناس في الثلث الأول من القرن السابع الهجري . ويذكر لنا صاحب « كشف الظنون » أن الشيخ الرئيس ابن سينا انتخب ديوان ابن الرومي وشرح مشكلات^(٥) شعره . ويروي لنا مؤلف « الغدير » أن ابن سينا قال : مما كلفني أستاذي في الأدب حفظ ديوان ابن الرومي ، فحفظته مع عدة كتب في ستة أيام ونصف يوم^(٦) .

(١) « الفهرست » ص ٢٣٥

(٢) « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٤٢

(٣) انظر « الوسيط » ص ٢٦٨ في ترجمة ابن الرومي

(٤) « الكامل » ج ٦ ص ٨٤

(٥) « كشف الظنون » ج ١ ص ٤٩٨

(٦) « الغدير » ج ٣ ص ٣٠

فأين هذا الديوان الذى زاد عليه المتزيدون ألف بيت ، والذى حفظه فيلسوفنا العظيم ابن سينا فى القرن الرابع وهو لم يبلغ السابعة من عمره ، والذى كان متداولاً معروفاً فى القرن السابع ؟ لقد كانت الزيادة على الديوان فى القديم سبباً للنقص منه فى عصرنا هذا . . . فإن الشيخ محمد شريف سليم لم يطبع من ديوان شاعرنا إلا إلى حرف الحاء ، وقد بلغ ذلك سبعمائه صفحة تقريباً ، فماذا يكون لو كمل الديوان كله إلى نهاية حروف الهجاء ؟ أما كامل كيلانى فقد جمع أشعاراً من الديوان ولكنها ليست الديوان كله ، ومن باب المجاز أن تسمى ديوان ابن الرومى . إلا أن له فضل تعريفنا بشعر ابن الرومى وعرض ألوان كثيرة منه منذ أكثر من ربع قرن من الزمان .

وقبل هاتين المجموعتين من شعر ابن الرومى جمع لنا محمود سامى البارودى فى « مختاراته » أفانين من شعر شاعرنا فى المدح والصفات والرثاء والهجاء والنسيب . ولكن ذلك كله يحملنا على التمنى بأن يهئ الله لديوان ابن الرومى من يخرج به إخراجاً علمياً دقيقاً على أحدث أصول النشر ، فإن من الغبن لشاعر المعنى العميق الدقيق أن يظل ديوانه أكثر من ألف عام ، ينتظر الكمال والتمام .

٢ - ابن الرومى عند النقاد

١ - عند نقاد العرب :

قد يكون ابن الرومى أغفل بعض الإغفال عند الإخباريين والمترجمين وكتاب الطبقات ، فإن حياته - كما أسلفنا - كانت نتفة من هنا ونتفة من هناك . إلا أن النقاد منذ القديم قد أنصفوه بعض الإنصاف حين عرضوا بعض أشعاره على المحك ، وحين نقدوه نقد الصيرفى الخبير ، وحين أبدوا فى معانيه من رأى ما لا يدع مجالاً للشك فى عمقه وتقصيله . فالمرزبانى فى « الموشح » يعقد لنا موازنة طريفة بين البحترى وابن الرومى ، وخاصة فى الهجاء ، فلا يلبث أن يشهد لشاعرنا وقصور البحترى عن مداه (١) . أما ابن رشيقي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فيقول

عنه إنه كان ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم أن لا مطمع فيه لأحد^(١) . ثم نراه في مواطن آخر يقول : أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق أبو تمام وابن الرومي^(٢) . أما ابن شرف القيرواني — معاصر ابن رشيق — فيصف شاعرنا بأنه شجرة الاختراع ، وثمره الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الإطراء ، فتح فيه أبواباً ، ووصل منه أسباباً^(٣) . ويشهد له المعري بأن أدبه كان أكثر من عقله^(٤)

ولقد كان لابن الرومي في القرن الرابع جماعة يتعصبون له ويفضلونه على شاعر كالمثني ، فترى الجرجاني يتعرض لهؤلاء فيذكر لهم أن ابن الرومي لا يظفر من قصائده — وهي طوال — بالبيت الواحد يروق . وقد تنسلخ قصائد من شعر ابن الرومي وهي واقفة تحت ظلها . . . لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ . . . على أن القصيدة من شعر أبي الطيب لا تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وإبداع وتصرف يدلان على الذكاء والاقتدار^(٥) . وقد يكون الجرجاني هنا مائلاً مع المثني على ابن الرومي ، مع أنه كان قاضياً فوق عمله في النقد الأدبي

على أن رأى الجرجاني هنه لا يشغلنا بحال عن رأى ابن خلكان ، وإن كان مؤرخاً أكثر منه ناقداً ، فهو يقول : إن شاعرنا صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية^(٦) .

ولقد وقف أبو هلال العسكري موقف الناقد المنصف غير المتحامل على ابن الرومي في « ديوان المعاني » ، فهو يختار له من جياذ المعاني في أغراض كثيرة من الشعر ، ثم يعلق عليها بداءة أو انتهاء بمثل قوله : وقد أبدع ابن الرومي .

(١) « العمدة » ج ٢ ص ١٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ ج ١

(٣) « رسائل الانتقاد » لابن شرف ص ٢٠

(٤) « الغفران » ص ٢٦٥

(٥) « الوساطة » للجرجاني ص ٥٢

(٦) « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٤٢

وليس لأحد في ملاحظتها وعلو جودتها وكثرة معانيها شيء^(١). إلا أن ذلك لا يمنعه أن يقول عن أبياته الجيمية في وصف قينة : إنها أبيات سخيصة ، تركت أكثرها لسخفه^(٢). أما الثعالبي في « خاص الخاص » فيروى لابن الرومي طائفة من غرر شعره ويعلق عليها بمثل قوله : لم أسمع في الهجاء بالحبين أبلغ وأملح وأطرف من قول ابن الرومي في سليمان بن طاهر ، ثم يذكر الأبيات^(٣). ولقد أعجب الحصري القيرواني بابن الرومي فروى له كثيراً من جياذ معانيه في كتابه « زهر الآداب » ، وقد قدم لشاعرنا بعض أبياته النونية في القيان بقوله : ومن أحسن ما قيل في صفة القيان قول ابن الرومي . ثم ذكر الأبيات^(٤). وقد ورد ذكر ابن الرومي في « زهر الآداب » أكثر من مائة مرة . ولابن الرومي عند ابن أبي عون - وهو قريب من عصره - نصيب من التقدير والاستحسان ، فهو يذكره في مواطن كثيرة جداً الكثيرة من كتابه « التشبيهات » . وكذلك فعل أبو علي القالي في « الأمالي » ، فهو يقف عند الجياذ من معاني شاعرنا وقفات قصيرات ، ولكنها صائبات ، حتى لرى الحصري القيرواني يكاد ينقل نص تعليقه على أبياته في وصف القيان^(٥) . ونمضى مع الزمن في سيره فرى الإمام البلاغى الناقد يحيى بن حمزة العلوى صاحب « الطراز » ومن أدباء القرن الثامن يذكر ابن الرومي في مواطن الاستشهاد على فنون المعاني وألوان البيان وعجائب البديع ، فلا يفوته أن يقع على دقائق تخلصه ، وغرائب تمثيله ، ولطائف مدائح^(٦) .

ب - عند المستشرقين :

فرغنا من الحديث عن ابن الرومي في كفة الميزان عند أدباء العرب ونقادهم

(١) « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ج ١ ص ٢٠٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥

(٣) « خاص الخاص » للثعالبي ص ١٠٢

(٤) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٦١١

(٥) « الأمالي » ج ١ ص ٢٣١

(٦) « الطراز » ص ١٨٢ ، ج ٢ ص ٤ ، ٣١٠ ، ٤٠٢

القدامى ، أما ابن الرومى فى مواطن الكشف والدراسة عند المستشرقين فإن نيكلسون لم يشر إليه ولو بأوجز الإشارات فى كتابه المشهور عن تاريخ الأدب العربى^(١) .
وعجيب أن لا يدخل شاعرنا فى حساب نيكلسون وهو يتحدث عن الاتجاهات الجديدة فى الشعر فى العصر العباسى ، على حين أن المستشرق الألمانى بروكلمان يتحدث عن شاعرنا فى الجزء الأول من كتابه المشهور فى تاريخ الأدب العربى^(٢) ، ثم يضيف فى تكملة الكتاب إضافات جديدة عن مصادر ابن الرومى ومراجعته فى الصفحات من ١٢٣ إلى ١٢٥ . ويتتبع ابن الرومى عند المحدثين ممن درسوه أو كتبوا عنه أو نشروا شعره . أما دائرة المعارف الإسلامية فقد عرفت بشاعرنا فى سطور وجاز^(٣) . وإن كانت الترجمة العربية قد وهمت بين الخليفة المعتضد وبين وزيره القاسم بن عبيد الله .

وفى الاستشراق الفرنسى نجد الأستاذ كليمان هيوار^(٤) يذكر شاعرنا ويقول عنه إن أشعاره معجبة لجمال التعبير وأصالة الفكر فيها . كما يلاحظ المرء فيها - على الخصوص - جودة الأفكار وطرافتها .

وحين اختار المستشرق الفرنسى إميل درمنجهم أجمل ما فى النصوص العربية وترجمها إلى اللغة الفرنسية فى كتابه المطبوع بباريس سنة ١٩٥٠^(٥) لم ينس أن يختار لابن الرومى أربع قصائد منهن أبياته فى رثاء ولده الأوسط ، وأبياته فى المغنية وحيد ، وبيتاه فى حرارة الشوق حتى مع العناق ، وهما هذان البيتان :

أعانقتها والنفس بعد مشوقة إليها ، وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاهها كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان !

وأخيراً نجد المستشرق الإنجليزى روفن جست R. Guest يخرج

(١) "Literary History of The Arabs"

(٢) "Arab Litt." , D. Gesch.

(٣) الترجمة العربية للدائرة مادة ابن الرومى . المجلد الأول .

(٤) صفحة ٨٣ من كتابه .

(٥) "Les Plus Beaux Textes Arabes."

كتاباً عن ابن الرومي يكتب بالإنجليزية ، ويطبع في لندن^(١) ، وتظهر فيه بعض النصوص الشعرية بالحروف العربية . وهو دراسة رصينة لشاعرنا رجع فيها المستشرق إلى كثير من المصادر وخاصة كتاب العقاد . فيكون كتاب جست — في مبلغ علمنا — الكتاب الوحيد عن ابن الرومي بلغة أجنبية ، كما كان كتاب العقاد الكتاب الوحيد والمرجع الوثيق في لغة الضاد . . .

٣ — شاعريته ومعانيه وصوره

لابن رشيق القيرواني رأى في شاعرية ابن الرومي لا بأس من إبراده هنا ونحن نتحدث عن شاعرية الرجل . فهو يقول إن ابن الرومي أولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه^(٢) . ولكن أين مكان الشاعرية عند ابن الرومي ؟ أهى في تلك المعاني الدقيقة العميقة التي يغوص عليها الشاعر ويستخرجها من مكانها ؟ أهى في اختراع المعاني وتوليدها والتصرف فيها على كل وجه ؟ أهى في انطباع اللفظ وسلامة العبارة من العيوب ؟ إن ابن الرومي نفسه يدلنا على مكان شاعريته حين نقرأ في « جمع الجواهر » هذه العبارة : قال ابن الرومي لرجل أنشده شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عارياً من تدقيق المعاني : نحن — أعزك الله — نحب السلامة مع الغنيمة^(٣) . فهو لا يرضى من الغنيمة أن يؤوب بأدنى ميسور وأهون محصول . . . ولكنه لا يزال يتعمق المعنى حتى يصل إلى قراره المكين .

وقد يكون تعمق المعنى يحمل بعض التبعة فيما جره على ابن الرومي من طول النفس في القصيدة ، فهو لا يترك المعنى حتى يستهلكه أو حتى « يميته » كما يقول ابن رشيق . ولقد يلح ابن الرومي على ترديد المعنى والتصرف فيه حتى ليظن ظان بأنه يسىء ظنه بفهم الناس له . . .

(١) Life and works of Ibn Erroumi

(٢) « العمدة » ج ١ ص ١٩٤

(٣) « جمع الجواهر » للحصري ص ٢٣٤

ولعل إلحاح ابن الرومي في تقصى المعانى هو الذى جعل من شعره - في مجموعه - شيئاً غريباً على الذوق العربى . . . فالشاعر العربى لا تألف عقليته التحليل وإدارة المعنى على كل وجه ، وإنما الشعر عنده لمح تكفى فيه الإشارة واللمحة الحافظة . ولعل هذا هو الذى حدا بشاعر كالبحترى - وكان معاصراً لابن الرومي - أن يقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه (١)

وإذا كان بعض رأى في ابن الرومي أنه تأثر بيونانيته فيما يتعلق بتعمق المعانى والوحدة في القصيدة ، فإن أكثر رأى على أن هذا التأثير بالروم لم يكن في أكثر شعره ، وأن ابن الرومي لم يمش مع « الوحدة » في كل ما نظمه ، فهناك مقطوعات أو قصائد تتم فيها الوحدة ، وهناك مطولات تنعدم فيها « الوحدة » ويصبح الشعر فيها لمحاً وخطرات متقطعة خاطفة على غرار الشعر العربى كله (٢) ولم يكن ابن الرومي هو المفرد العلم من شعراء عصره النازع إلى التحليل والتعمق واستعمال المنطق في الشعر مما عابه البحتري . فقد كان أبو تمام - وقد مات وابن الرومي غلام - شاعراً نزاعاً إلى المنطق وإلى العقل أكثر من نزوعه إلى الخيال ، كما كان شديد النزوع إلى التعمق في المعانى وتقصيها إلى أبعد الحدود (٣) . وقد بلغ الولوع بالمعانى عند أبي تمام وابن الرومي أنهما أكثرا من توكيد المعنى بالمعنى في شعرهما ، كأن الثانى حجة على الأول واستشهاد له . ولم يجد أبو هلال العسكري من يمثل له بشعر الاحتجاج لتوليد المعانى غير ابن الرومي وأبي تمام ، وقلة من مثل بشار (٤) .

(١) الهذر : الهذيان والتخليط في الكلام . وانظر القصيدة كاملة في ديوان البحتري ص ٣٨

(٢) انظر في معرض هذا رأى : المقدسى في « أمراء الشعر » ، وشوقي ضيف في « الفن ومذاهبه

في الشعر العربى » ، وطه حسين في « من حديث الشعر والنثر » ، ومارون عبود في « العروض » وانظر العقاد في « ابن الرومي » والمازنى في « حصاد الهشيم » .

(٣) « الصناعتين » ص ٤١٦

(٤) « فن التشبيه » لعلى الجندى ج ٢ ص ٢١٨

والحديث عن شاعرية ابن الرومي يسوقنا إلى الحديث عن تشبيهاته ، فقد سئل : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ؟ فأجاب بأن هذا إنما يصف ماعون بيته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . فتشبيهات الشاعر ينزعها من بيئته ويأخذها من وسطه الذي يعيش فيه . . . كذلك الشاعر الذي شبه ممدوحه الخليفة بالكلب في الحفاظ على الود وبالتيس في مصارعة الخطوب ، فلما تحضر وترك البادية مدح الخليفة المتوكل برائية رقيق مطلعها :

عيون المها بين (١) الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى (٢)

وينخل إلى أن حكاية ابن الرومي وابن المعتز في التشبيهات قد وضعت فيما وضع للإزراء على ابن الرومي وتنقصه . فقد جمع له رجل قريب من عصره - وهو ابن أبي عون - مئات من التشبيهات لا يقل بها قدراً عن شعراء التشبيه البديع . على أن ابن الرومي قد برع في « التمثيل » وهو أدق من التشبيه وأكثر لطفاً وأجمل خفاء . فقد يكون قصارى الشاعر المشبه أن يشبه ممدوحه بالبحر في الجود والقمر في السناء ، والسيف أو القدر في المضاء . ولكن ابن الرومي يمدح أبا القاسم بهذه الأبيات :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده	لم يحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته	تضاءل النيران : الشمس والقمر
وإن نضا (٣) حده أو سلَّ عزيمته	تأخر الماضيان : السيف والقدر
من لم يبت حذراً من سطو صولته	لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيا العيان به	والشاهدان عليه : العين والأثر

ولقد وقف الشاعر الأديب البلاغي يحيى بن حمزة العلوي عند هذه الأبيات وقفة الإعجاب والاستغراب (٤) .

(١) المها : جمع مهاة وهي بقرة الوحش ، والرصافة مكان بالجانب الشرق من بغداد .

(٢) هذا الشاعر هو علي بن الجهم . وانظر هذه القصة في « محاضرة الأبرار » . وفي « ديوان ابن الجهم » تحقيق خليل مردم بك .

(٣) نضا حده : أى جرد عزيمته

(٤) « الطراز » للإمام يحيى العلوي ج ٢ ص ٤

إن من الظلم لابن الرومي أن لا نضعه في التشبيه فوق قدر ابن المعتز ،
فتشبيهاً ابن المعتز بصرية حسية لأنها تشبيه المبصرات بعضها ببعض^(١) .
فتشبيهه زهرة الآذريون — أو عباد الشمس — بمداهن الذهب التي فيها بقايا
مسك ، وتشبيهه زهر الرجس بمداهن الدر المحشوة بالعقيق إنما هو تشبيه حسي
لا جمال فيه إلا بذكر المشبه به شيئاً غريباً أو نفيساً أو من لطائف التحف
والجواهر . أما تشبيهاً ابن الرومي فهي معنوية عميقة تتجاوز الواقع الملموس إلى
البعيد الذي لا يصاد إلا بالخيال العجيب . أليس تشبيهه للرقاقة في يد صانعها —
وليس بين كونها عجيبة مكورة وفطيرة مرققة إلا بمقدار ما تنداح الدائرة في
الماء حين يلتقي فيه بالحجر — أليس ذلك تشبيهاً يعيا أمامه صناع التشبيه ممن
لم تواتهم الفطرة الأصيلة والخيال العميق ؟

على أن ابن الرومي لم يقصر عن ابن المعتز في تشبيه المحسوس بالمحسوس
الطريف ، حتى يقال إنه اعترف في الحكاية البادية عليها الوضع بأنه أقل
من ابن المعتز في هذا النوع ، لأن ابن المعتز خليفة أو ابن خليفة يصف
ماعون بيته . . . فتشبيه ابن الرومي للعنب الرازقي بقوله :

ورازقي مخطف^(٢) الحصور كأنه مخازن البلور^(٣)

قد ضمنت مسكاً إلى الشطور وفي الأعلى ماء ورد جوري^(٤)

لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور

— هو مثل تشبيهاً ابن المعتز الحسية ، وذلك في البيت الأول ، أما تشبيه ماء
العنب في الحبة بالضياء في وعاء النور فذلك من دقائق الاحتيال ولطافات
الخيال . . . ومرة أخرى نرى ابن الرومي يشبه تشبيهاً حسياً لا يقل عن تشبيهاً
ابن المعتز ، فهو يقول في الغزل :

سقى الله قصرًا بالرصافة شاقني بأعلاه قصرى^(٥) الدلال رصافي

(١) « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، و « فن التشبيه » لعلی الجندي

(٢) مخطف الحصور أي ضامر الحصر

(٣) « نهاية الأرب » ج ١١

(٤) الورد الجوري : هو نوع جيد من الورد ينسب إلى مدينة جور من مدن فارس

(٥) قصرى الدلال أي محبوب منسوب إلى القصور ودلالها

أشار بقضبان من الدر قمعت^(١) يواقيت حمراً ، فاستباح عفافي^(٢)
فبنان هذا المحبوب في بياضها وحمرة رعوسها كقضبان من الدر لها أقماع من
الياقوت الأحمر . . . أليست هذه الصورة الحسية مثل صورة ابن المعتز لزورق
من الفضة قد أثقلته حمولة من العنبر ، في وصف الهلال ؟

* * *

الحق أن صور ابن المعتز حسية لا روح فيها ولا حياة . فهي تماثيل من
ذهب وفضة وياقوت وعنبر وزبرجد وأحجار كريمة وغير ذلك ، ولكنها تنقصها
الحيوية والحركة . . . أما صور ابن الرومي حين يشبه ، وحين يصور ، وحين
يصف ، فهي فياضة بالحياة والحركة وغرائب المفارقات . فصوره للشقيل ،
والجبان ، وصاحب اللحية العريضة ، والقبيح الوجه الذي وجهه أولى من العورة
بالستر . . . والأحذب الذي يبدو كأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية للصفعة
فتجمع لها . . . كل هذه صور لا تثير فينا الضحك بل تثير فينا الإعجاب
بالاحتياال على المعنى بمثل هذه الدقة واللفتة العميقة والتنبه الواعي لمثارات
الضحك . . . وسنعرض بعض هذه الصور في الفصل الرابع من هذا الكتاب
حيث هناك مكانها من الاستشهاد .

٤ - صياغته الشعرية وألفاظه

لو أن ابن الرومي اهتم بتجويد اللفظ والعبارة اهتمامه بتحليل المعاني وتمحيصها
لاجتمع فيه من ذلك الشاعر الكامل . ولعل عنايته بالمعنى قد طغت على مكان
التعبير عنده ، فهو لا يبالي متى وقع له المعنى الجيد العميق البعيد في أى
ثوب . وقد يتهم شاعرنا بندرة الجزالة والرصانة عنده ، وبعدم المتانة في لفظه^(٣) .
ولكن قد يقع له المعنى الجيد في العبارة المرضية واللفظة الجيدة . فحين يقول
أبو العتاهية :

(١) قمعت أى ركبت عليها أقماع .

(٢) ابن رشيق ج ١ ص ٢٠٤ ، وليس هذان البيتان فيما لدينا من مجموعات شعر ابن الرومي

(٣) « من حديث الشعر والنثر » ص ٢٣٥

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم
فإن المعنى صحيح إلا أن العبارة غير مرضية ولا ذيقة . ولكن ابن الرومي
حين يعبر عن هذا المعنى فإن العبارة لا تخونه ، ولكنها تأتي مع جمال المعنى على
قدر سواء . . . اسمعه وهو يقول :

وهل خلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث واش يكيدها ؟
مع الواصل الواشى ، وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يدودها ؟^(١)

وابن الرومي في الأغلب حين يقع له المعنى الجيد فإن اللفظ بعد هذا
لا يهيمه ، فقد يختار اللفظ الغريب الحوشى ويؤثره على المؤلف البليغ . وكثيراً
ما نجد في شعره « اللصاب » بدلا من شعاب الوادى ، و « السخاب » بدلا
من القلادة في العنق من القرنفل وغيره ، و « المرث » بدلا من الحليم الصبور
في الحصام ، و « القفد » بدلا من الصفع على القفا بباطن الكف ، وغير ذلك
عشرات وعشرات من الكلمات التي كان غيرها من الجزل المؤلف يغنى غناءها ،
ويسد مسدها . ولكن لعل ابن الرومي يُبدل بقدرته اللغوية على عرفان الغريب
من الألفاظ ، وقد يتحدى بهذه الألفاظ الشعراء ذوى الأصول العربية الأقياح^(٢)
لأنه ابن رومي وابن فارسية . . . وهو حين يغرب في اللفظ يغرب أيضاً في
القافية . . . فينظم من قافية الثاء ، والحاء ، والذال ، والطاء وهي حروف ثقال .
وإذا كان ابن الرومي لم يسرف في المحسنات اللفظية إسراف سلفه القريب
منه أبى تمام فإنه كان يقع له في شعره كثير من حلى الألفاظ . فكان يستعمل
الجناس^(٣) ، وكان يلجأ بعض الحين إلى المجاورة وهي من الحلى اللفظية كقوله :

مشارك	الحظ لا	محصله	محصل المجد غير	مشاركه
منتهك	المال لا	ممنعه	ممنع العرض غير	منتهكه ^(٤)

(١) « الموشح » للعرزبانى ص ٢٦١

(٢) أى الخالصين في نسبهم العربى .

(٣) الجناس هو اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى ويجب أن يرجع إليه في كتب البلاغة

(٤) « الصناعتين » لأبى هلال ص ٤١٥ . ومعنى البيتين أن الممدوح مشترك الحظ مع الناس

ولكنه انفرد وحده بتحصيل المجد فلم يشركه فيه أحد ، كما أنه ينتهك أمواله بالعطايا على حين أن
عرضه سليم مصون غير منتهك .

وكان فوق هذا يرصع في أشعاره ، أى يحشو البيت من داخله بالسجع .
وقد استجاد أبو هلال ترصيعه في قوله في وصف حسناء :

حوراء في وطف ، قنواء في ذلف لفاء في هيف ، عجزاء في قبب (١)
وهو يستعمل الطباق — وهو الجمع بين المعانى المتضادة المتقابلة كالأبيض
والأسود ، والطويل والقصير — وإن كان ولوعه به أقل من غرامه بالجناس .
وفي البيتين الآتين يطابق بين المدح والهجاء ، والمنع والعطاء ، حين يقول في
المدح بلا ثواب :

إذا ما المدح سار بلا ثواب من الممدوح فهو له هجاء
لأن الناس لا يخفى عليهم أمتع كان منه أم عطاء
ولقد سبق شاعرنا ابن الرومى الشاعر أبا العلاء المعرى في التزام ما لا يلزم في
القافية ؛ وقد تنبه الأمير ابن سنان إلى هذا فقال : وكان على بن العباس الرومى
يلتزم هذا كثيراً ، وهو موجود في شعره (٢) . والأمثلة على هذا كثيرة لا يتسع لها
المقام هنا . ويؤكد هذا الشغف ما قاله ابن حمزة العلوى بعد هذا بثلاثة قرون
من أن ابن الرومى كان من أكثر الناس ولعاً بلزوم ما لا يلزم في أشعاره (٣) .
وقد التزم ابن الرومى في قصيدته الدالية التى يقول فيها :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
الترم فيها حركة الفتح قبل الدال وهو التزام بشيء لا يلزم ، فقد كان
في مندوحة من أن يضم أو يكسر ما قبل حرف الروى في قصيدة طويلة مثل
هذه تبلغ أربعمائة بيت من الشعر (٤) يمدح فيها صاعداً ، ويذكر الموفق
وصاحب ثورة الزنج (٥) .

(١) الحوراء شديدة سواد العين وبياضها ، والوظفاء كثيرة شعر الحاجبين ، والقنواء المرتفعة
الأنف ، والذلفاء الدقيقة الأنف . واللفاء المملوءة الفخذين ، والهيفاء الدقيقة الخصر ، وكذلك القباء .

(٢) « سر الفصاحة » ص ١٧٢

(٣) « الطراز » ج ٢ ص ٤٠٢

(٤) لم يذكر من هذه القصيدة في ديوان ابن الرومى الذى اختاره كامل كيلانى إلا بضعة
وخمسون بيتاً

(٥) « اللآلى فى شرح الأمالى » ج ١ ص ٣٢٩

٥ - عيوب شعرية

وهل سلم من العيب أدنى الناس أو الأشياء إلى الكمال ؟ إن ابن الرومي شاعر فحل ، مصور ، بارع ، دقيق المعاني ، عميق الفكرة ، بديع التصوير ، ولكن له بعض المعاييب في شعره هي نقص القادرين على التمام . . . وقد اختار بديع الزمان الهمذاني في مقامته^(١) العراقية بيتاً يضرب به المثل في الثقل وهو قوله : إذا منَّ لم يمنن بمن يمنه وقال لنفسى أيها النفس أمهلى^(٢) وفي كثير من قصائده ابن الرومي وشعره مثل هذا البيت الثقيل كما قال بديع الزمان الهمذاني ، أو السخيف كما نقول نحن . ولكن أترى ذلك يسقط شاعرية ابن الرومي وفحولته جملة ؟ ألا يقع للرجل المجود ما ينقص أسباب إجادته ؟ لقد قال « مثقال » الشاعر : قلت لأبي تمام : تقول الشعر الجيد ، ثم تقول البيت الرديء ؟ فقال أبو تمام : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى ، فلا يجب أن يموت^(٣) . وكذلك كان أبناء الشعر أو بناته عند ابن الرومي . . . فيها واحد أو أكثر من واحد رديء ، فلا يجب الشاعر أن يموت هذا الواحد ! بل أكثر من هذا فإن ابن الرومي نفسه لم يمت بمثل هذا الرديء ! وإن كان وضع على مشرحة الزمان في ميزان النقد الذي لا يحابي ولا يميل . . .

وقد أحس ابن الرومي نفسه بأن في شعره الجيد والرديء ، فاعتذر من ذلك بأن الشجر فيه اللحاء - أي القشر - والخشب ، والشوك ، والثمر :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر ؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليه ابس والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما ينحلق رب الأرباب لا البشر !

(١) « مقامات بديع الزمان » . طبعة ٣ بيروت ص ١٤٩

(٢) « علق الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على هذا بقوله : « وثقل وقع البيت لأن تكرار المن في الشطر الأول مع برودة اللفظ في الشطر الثاني مما يكره سماعه . أو لأنه ذكر المن فيه أربع مرات . وكل من مائتان وثمانون مثقالاً . فالذهن يحمل من ثقل البيت ألفاً ومائة واثنين وثلاثين كذا » مثقالاً ، وما هي بقليل !

(٣) « الموشح » للمزباني ص ٣٢١

لقد عابوا على شاعرنا بعض الحشو في مثل قوله : ~~XXXX~~
 وقبيل أفواهاً عذاباً كأنها ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر
 لأن اللؤلؤ لا يكون إلا في البحر ، فلفظة البحر هنا حشو^(١) . وعابوا عليه
 بعض الإفراط في المبالغات^(٢) مثل قوله مادحاً :
 أحاط علماً بكل خافية كأنما الأرض في يديه كرة
 وعابوا عليه كثيراً من الصناعة والمحسنات والتصحييف في شعره ، وعابوا
 عليه هذه الإضافات إلى فاعل المصدر ، وهذه الضمائر المتصلة في مثل قوله :
 على دين ثقیل أنت قاضيه يا من يحملني ديني رجائي
 وقوله :

ومحاسن الأشياء فيك معاً فملالتيك ملالتي بصرى
 وقوله :

وعزيز على عضيك باللو م ولكن أصبت صدرى بداء
 بدلا من قوله : رجائي إياك ، وملالتي إياك ، وعضي إياك .
 وعابوا عليه إكثاره من ذكر الألفاظ الفارسية لأنها لا تستحسن في الشعر
 وما إليه من الكلام الفنى^(٣) ، من مثل آيين بمعنى عادات ، وشير بمعنى أسد ،
 وكوش بمعنى أذن ، وزرياب بمعنى ماء الذهب . ولكنهم نسوا اعتذاره هو من
 العيوب في شعره ، ونسوا البيئة والأصول التي جرت في دمائه ، والبواعث التي دفعته
 وكيفته في طريقه المرسوم . . .

٦ - أغراض من الشعر

١ - المدح :

لقد مدح ابن الرومي ألواناً من الناس في عصره ، فمدح الوزراء والكتاب

(١) « الصناعتين » لأبي هلال العسكري ص ٤٥١

(٢) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٩٧٤

(٣) « أمراء الشعر العربي » للمقدسي ص ٢٦٠

بالهجاء ، على أن هذا الإنذار قد لا يأتي أولاً كما هي طبائع « الإنذار » ،
 وإنما يأتي بعد تبكيت وتقريع هو أدنى إلى الهجاء . . . ويؤيد ذلك موقفه من
 صديقه سوار بن أبي شراعة^(١) ، فهو يقول له من أبيات :

وَصَفَّ المكارم وهو فيها زاهد ورأى الجميل وفيه عنه تغاضى
 ثم يقول له بعد عاصفة من التبكيت :

فاكفف سهامك عن أخيك فإنما آسفته فرماك بالمعراض^(٢)
 فاعذر أخاك على الوعيد فإنما أنذرت قبل الرمي بالأنباض^(٣)
 وهو متربص مستوفز الحس لكل من يتعرض له فيقول :

عجبت لمن تمس بي اغتراراً أتاح لنفسه سهماً مصيباً
 سأرهق من تعرض لى صعوداً^(٤) وأكوى من مياسمى^(٥) الجنوبا
 إن النفس لتعاف من ذكر مفاحشات ابن الرومي في هجائه ، على أن
 الشاعر الهجاء الصنّاع قد يوجع بالهجاء ولكنه لا يفحش . كذلك الشاعر
 الذي قال هاجياً :

إن يفجروا أو يغدروا أو ييخلوا لم يحفلوا ...
 وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

أليس هذا أبلغ من ذكر العورات والقول الفاحش المقذع^(٦) ؟

ج - الرثاء :

إذا كان ابن الرومي من شعراء الرثاء فإن مكانه في رثاء الأبناء في الأدب
 العربي مما لا يجوز إغفاله . ولا نزال نذكر مرثية أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٤١

(٢) المعراض : هو السهم يصيب بعرضه لا بجده

(٣) الأنباض : هو تحريك وتر القوس لكي ترن في الرمي

(٤) سأرهقه صعوداً أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو تعبير من القرآن في سورة « المدثر »

(٥) المياسمى جمع ميسم وهو المكواة

(٦) « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ص ١٨٢

السبعة الذين ماتوا إلا طفلاً ، فقال من قصيدة رائعة :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع^(١)

ولا نزال نذكر من الشعراء الذين رثوا أبناءهم : القرشي ، والخنساء ،
وعبد الله بن الأهم ، وأبا العتاهية ، وأبا الخطار ، وجريراً ، وابن عبد ربه ،
والتهامي^(٢) وغيرهم ، إلا أن ابن الرومي أجاد في مرثيته لابنه الأوسط محمد ،
وهي تلك الدالية المشهورة التي سنعرض طرفاً منها في الفصل الرابع .

ولما أُرصد الدهر سهامه لابن الرومي في أهله وأسرته رأيناه يرثي الراحلين منهم
مراثي مؤثرة ، فرثي ولديه هبة الله وابنه الثالث ، ورثي أمه وخالته وزوجته وأخاه .
ويظهر أن الأحزان لم تعد تشغله عن رزئه في نفسه هو . . فقد كانت فجيعة
في حياته هو أشد وأنكى من فجيعة في موت أهله وبنيه . ويقول في ذلك :

رأيت الدهر يجرح ثم يأسو يوسى أو يعوض أو ينسى
أبت نفسي الهلاع لرزء شيء كفى شجواً لنفسي رزء نفسي

وقد يجد أغلبنا راحة وتأسياً في أحزان غيره وبلوهم فتهون عليه بلواه . . .
ولكن ابن الرومي لا يرى ذلك ، فهل يستطيع مرزوء أن يحمل عنا بعض
أرزائنا ؟ اسمعه يقول :

وما راحة المرزوء في رزء غيره أيحمل عنه بعض ما يتحمل ؟
كلا حاملي عبء الرزية مثقل وليس معينا مثقل الظهر مثقل^(٤)

د - الوصف

يعين ابن الرومي على قدرة الوصاف فيه عين المصور وريشته ، فكأنه كله

(١) « العقد الفريد » ج ٣ ص ٢٥٣

(٢) انظر قصيدة التهامي في رثاء ولده في « معراج البيان » ص ٨٧

(٣) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٩٢٩ . والهلاع هو أشد الجزع ، والشجوا الحزن والأسى

(٤) « زهر الآداب » ٩٢٩ والمعنى أن المثقل بمصابه لا يستطيع أن يحمل عبء مثقل آخر

عيون تنظر إلى الحياة من كل زاوية ، كما كان كله شهوات حين يأكل حين يشرب وحين يجلس إلى مائدة فيصورها بما فوقها من أطايب الطعام . إلا أن طبيعة ابن الرومي في التصوير والوصف قد غلبتها مداخل الصناعة ، أو غشيتها اعتبارات الهوى الجامح حيناً ، وخطرات الوسواس أحياناً . . . وإلا فقيم تفضيله النرجس على الورد ، وتشويهه لصورة الورد بما يجعلنا نشك في صدقه ؟ إن الأصالة والطبع قد يبدوان في أوصاف ابن الرومي وصوره وتصويره ، إلا أن الصناعة وإظهار المقدرة قد يبدوان كذلك . ولكنه على كل حال - بين الطبع والصنعة - قد ترك لنا أوصافاً تجعله من كبار الوصاف . ولقد وصف شاعرنا الرياض والأزهار من مثل النيلوفر ، والنرجس ، والشقائق ، والخيري^(١) ، ووصف الفاكهة من مثل الموز ، والبلح ، والعنب ، والتوت ، والتفاح ، والأترج^(٢) ووصف الطعام والشراب من مثل الرقاق والزلاية والدجاج المحمر والسملك المقلّي واللوزينج والحمور . ووصف ألواناً من الخلق مثل القيان والثقلاء والحذب والعور ، مما سيجيء نماذج منه في باب المنتخبات . وتأتي طبيعة المصور فيه إلا أن ترسم لك اللوحة كاملة لكل صورة ، فلا تحس نقصاً هنا في الظلال ، أو زيادة هناك في الأضواء . . . وسنلتقي مع القارئ الكريم في باب المنتخبات بوصفه لليلة بات فيها في « خان » وكان الجو عاصفاً والمطر واكفاً :

يؤرقني سقف كآني تحته من الوكف تحت المدجنات الهواضب^(٣)
 كما سنلتقي معه في وصفه لأهوال الماء في بحر دجلة ، ووصفه لمجتمع بغدادى من الطبقة العالية المعربة الصاخبة ، ووصفه لشهر أيلول « سبتمبر » في العراق والرياح فيه ساجية ، والمضاجع باردة ، والقمر يسرى بصفحته الساجية .

(١) انظر « نهاية الأرب » ج ١١ ، و « التشبيهات » لابن أبي عرن . والنيلوفر: نبات ينمو على سطوح المياه وله زهر جميل ، والشقائق: هي شقائق النعمان وهو زهر مرقش بنقطة سود . والخيري: هو زهر المنثور

(٢) هو حامض من جنس الليمون الحلو

(٣) الوكف: هو انصباب المطر ، والمدجنات: هي السحب التي يدوم مطرها ، والهواضب:

السحب الكثيرة المطر

هـ - أغراض أخرى :

تنتشر أبيات من الغزل هنا وهناك في ديوان ابن الرومي ، إلا أنها في مجموعها - ومتفرقها - لا تقوم بأن نعهده من شعراء الغزل . فقد يجعل الغزل والنسيب في قصائده تخلصاً إلى المدح أو إلى الغرض الذي يريده ، وقد يجعله مقدمة للهجاء كما يقول هو :

ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيب ؟
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرقاً يكوى القلوبا (١)
وغزل ابن الرومي تغلب عليه الشهوة والحسية أكثر مما تغلب عليه العاطفة .

وأية حسية أظهر وأعلن من قوله فى « شاجى » جارية عبيد الله بن طاهر :
ذات جيد يزهى على كل عقد وجبين يزهى على كل تاج
يتلقاك فى الغلائل منها وجه شمس وجسم دمية عاج
أسبلت من ذراه جعداً (٢) أثيثاً جائزاً حد منها الرجراج
جارياً فوق منها جرية الما ء وإن كان حالك الأمواج
إلا أن له مع ذلك فى وصف لذاذات العناق ، ومرارة الفراق ، وحرارة
الأشواق ، وسحر الحديث ما يعد فيه سابقاً . أو ليس من بدائع فى صفة حديث
الحبيبة قوله :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يحن قتل المسلم المتحرز (٣)
إن طال لم يملل ، وإن هى أوجزت ود الحدث أنها لم توجز
ثم أليس من صفته لطيب أنفاس الحبايب - فلا تعترىها آفة بشرية من
النوم - ما يفوق فيه الموهبين من شعراء الغرام (٤) ؟

* * *

ولابن الرومي من شعر الحنين إلى الأوطان ما يعد به أول من علل شوق

(١) « ديوان ابن الرومي » شرح الشيخ شريف ص ٥٤٩

(٢) الجعد: هو الشعر غير المسترسل ، والأثيث هو الملتف الكثير ، والمتن هو الظهر

(٣) المتحرز: هو المتحفظ المتصون

(٤) « التشبيهات » ص ١٠٤ ، و « ديوان المعاني » ص ٢٣٩

الناس إلى ديارهم^(١) . فقد كان الناس قبله يحنون إلى الوطن ، أما هو فقد ذكر علة ذلك الحنين بقوله المبتكر :

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاهما الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
كما أن له في الشيب والشباب والبكاء على عهود الصبا النواضر ما يقل
نظيره في الأدب العربي ، وما لا يدانيه فيه الهذلي ، وأبو العتاهية ، وأبو تمام ،
ولا معاصره البحتري ، ولا ابن المعتز ، ولا مسلم ابن الوليد ، ولا المتنبي ،
ولا الشريف المرتضى وغيرهم ممن بكوا أما ليد الشباب^(٢) .

أما الحكمة والمثل في شعر ابن الرومي . فلم يكن صاحبنا متخلفاً فيهما ،
ولا مقصراً دونهما . إلا أن المثل الشعري يسير حين يبلغ منه الإيجاز مبلغ
التركيز . فإذا لجأ إلى المنطق والتحليل والتطويل لم ينفع لسيرورة ، ولم يصلح
لاستشهاد . ومن هنا سارت أمثال المتنبي وروتها الألسنة في كل أرض . وقل أن
يتفق المثل الشعري لشعراء الإطالة وتعمق المعاني وإدارتها على كل وجه
كابن الرومي . ولكنه ميسور لشعراء اللمحة الخاطفة والخطرة الجارية . . . وقد
يكون المتنبي أفاد كثيراً من معرفته لأقوال أرسطو في الحكمة^(٣) . على أن
ابن الرومي له من الحكم ما قد يعد به نسيج وحده . ومن حكمه السائرة قوله :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
وكثيراً ما يعقب شاعرنا الحكمة أو المثل بالتذييل لها أو التعقيب عليها ،
فتقع في أكثر من بيت واحد — كما سنرى في النماذج — على حين أن أمثال
شاعر كالمتنبي يقع الواحد منها في بيت واحد ولا يزيد عليه .

* * *

بقي العتاب والشكوى عند ابن الرومي . فكثيراً ما نلقاه في شعره عتاباً
أو شاكياً ، كما رأيناه قبل ذلك مادحاً أو هاجياً . وليست الشكوى غريبة من

(١) « زهر الآداب » ص ٦٨٢

(٢) « الشهاب في الشيب والشباب » للشريف المرتضى .

(٣) « الرسالة الخاتمية » لابن المظفر . طبع بيروت سنة ١٩٣١

رجل كان ساخطاً على الأقدار ، غاضباً على ظلم الحظوظ حين تعطى من لا يستحق العطاء ، وتحرم من هو جدير بالإيفاء . . . وما أشد صرخته وهو يقول فى معرض المترفين الواجدين المكثرين :

لم أكن دون مالكى هذه الأم لأك لو أنصف الزمان المحابى
وما أمرشكواه إلى عبيد الله بن سليمان من امرأة غصبت بعض عقاره ، فقال :
تهضمنى أنثى وتغصب جهرة عقارى ؟ وفى هاتيك أعجب معجب
فهو لم يكفه ظلم الزمان ، حتى تغلبه وتهضمه بعض النساء .

أما العتاب فهو ثمرة الحس المرهف ، والعصب المدنف ، وضيق الصدر بما لا تطاق معه صغائر الناس ، وقلة الحيلة فيما تتسع له صدور المدارين .
فإذا أبطأ إنسان فى ثوابه عاتبه ، وإذا ماطله على بن يحيى المنجم عاتبه ،
وإذا لمح من بنى وهب الوزراء أدنى تقصير - أو قصور - عاتبهم وقال لهم :
تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا نبال العدا عنى فكنتم نصالها
وإذا نام أبو القاسم التوزى عن حاجته يوماً رماه بالهمزية الطويلة يعاتبه فيها أشد عتاب .

٧ - آخذ ومأخوذ منه . . .

يسمون الأخذ سرقة شعرية . . . ولكننا نجل شاعراً ذا مكانة وخطر كابن الرومى أن يكون سارقاً . . وإن كان هو نفسه اتهم بالبحترى معاصره بأنه :
عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهم حرّ الكلام بجيش غير ذى لجب^(١)
ولكن شاعرنا على كل حال كان موضع نقد النقاد حين أخذ معانى غيره من الشعراء ، فوقف له هؤلاء النقاد يتبعون المعانى ويردونها إلى أصولها وقائليها .
فقول ابن الرومى :

فامدد إلى يداً تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبيل

مأخوذ من قول إبراهيم بن العباس للفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها المثل

(١) اللجب : هو الصياح والجلبة

فباطنها للندي وظاهرها للقبيل (١)
ولقد عد الحصري القيرواني وأبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني
وابن الأثير وغيرهم كثيراً من مأخذ ابن الرومي من غيره من الشعراء (٢) . .
إلا أن شاعرنا كما كان آخذاً فهو مأخوذ منه ، وكان معدواً عليه كما كان عادياً !!
فالمتنبى - على جلال قدره ومكانه الشامخ في الشعر العربي - يعجبه قول
ابن الرومي في الرياض :
فهى تشنى على السماء ثناء طيب النشر شائعاً في البلاد
فيقول آخذاً منه :
وذكى رائحة الرياض كلامها تبغى الثناء على الحيا (٣) فتفوح
وابن الرومي يقول : (أخشى عليك انتقاد الفكر لا حذرا)
فيعجب المتنبي بهذا المعنى فيأخذه - بلا استئذان - ويقول :
أشفق عند انتقاد فكرته أخاف منها عليه يشتعل
ولا يعيب المتنبي أنه أعجب بمعنى لابن الرومي فأخذه ، كما لا يعيب
ابن الرومي أنه أعجبه معنى أبي تمام :
وإذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضى
فاسترقه أحسن استراق (٤) قائلاً :
ووكلت مجدك فى اقتضائك حاجتى وكفى به متقاضياً ووكيلاً
فإن المعانى شائعة ، إلا ما كان منها معروفاً بعلوم السبق إليه والابتكار فيه .

٨ - أبيات حائرة النسب

هناك فى شعر ابن الرومي أبيات حائرة بين النسب إليه والنسبة إلى غيره . . .
فأبياته الضادية التصويرية الرائعة للغمام وقوس قزح ، التى يقول فيها :

(١) « كتاب الصناعتين » ص ٢٢٤

(٢) انظر « زهر الآداب » و « الصناعتين » و « ديوان المعانى » لأبى هلال ، « والوساطة »

للجرجاني ، و « المثل السائر » لابن الأثير .

(٣) الحيا : هو المطر .

(٤) « الطراز » للشريف ابن حمزة العلوى ص ١٩٤

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجود كناً والحواشي على الأرض
 يطرزها قوس السحاب بأصفر على أحمر في أخضر وسط مبيض
 كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة ، والبعض أقصر من بعض
 هذه الأبيات ينسبها الثعالبي لسيف الدولة بن حمدان ، ثم ينسبها مرة
 أخرى لعضد الدولة (١) ، وينسبها النويري لسيف الدولة (٢) . أما العباسي
 فينسبها لابن الرومي ، ثم يقول إن بعضهم ينسبها لسيف الدولة ، منهم صاحب
 اليتيمة (٣) .

وأبيات القطائف التي فيها :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي (٤) حشو الموز
 هي في ديوان ابن الرومي له ، ولكنها عند أبي إسحاق الحصري منسوبة لعلی
 ابن يحيى المنجم (٥) .

ولابن الرومي في طيب أنفاس الحبيبة بيتان في ديوانه ، وفي الصناعتين ، وفي
 ديوان المعاني ، وفي حماسة ابن الشجري وهما :

وما تعترها آفة بشرية من النوم إلا أنها تتخثر
 كذلك أنفاس الرياح بسحرة تطيب وأنفاس الوري تتغير
 إلا أن الوزير أبا عبيد البكري ينسبهما - وهما منه - إلى البحتري معاصر
 ابن الرومي (٦) .

وهناك البيتان التاليان :

لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي
 لقد أحللت حاجاتي بواد غير ذي زرع
 فابن حجة الحموي ينسبهما إلى ابن الرومي (٧) ، والعباسي يقول إنهما ينسبان

(١) « يتيمة الدهر » ج ١ ص ٢٤

(٢) « نهاية الأرب » ج ١ ص ٩٤

(٣) « معاهد التنصيص » ج ١ ص ١٠٩

(٤) الماذي : هو العسل الأبيض

(٥) « جمع الجواهر » ص ٢٨٧

(٦) « سمط اللآلي » ج ١ ص ٥٢٤

(٧) « خزانة الأدب » للحموي ص ٥٤٠ طبع بولاق

لابن الرومي ، ولكنه يذكر أنه رآهما في الأغاني لإسماعيل القراطيسي ^(١) . وهما في الأغاني للقراطيسي ^(٢) في ترجمته ، ولم يردا في ديوان ابن الرومي على الإطلاق . وهما عند ابن قتيبة ^(٣) للقراطيسي أيضاً . وابن قتيبة من أقدم الرواة الثقات هنا . وهناك أبيات في المشيب أولها :

طربت إلى المرأة ^(٤) فروعتني طوالع شيبتين ألتا بي
يرويهما الحصري لابن الرومي ، ثم يقول : وقد رأيت من ينسبها إلى كشاجم ^(٥) .
وهناك أبيات أولها :

بقيت مالك مـ يرثاً لـ وارثه فليت شعري ما أبقى لك المال ؟
وينسبها أسامة بن منقذ لابن الرومي ، مع أنها في العقد الفريد منسوبة
لأبي العتاهية ^(٦) لأنها في ديوانه ، ولكن أسامة وهم في نسبتها لابن الرومي .

٩ - ابن الرومي الناصر

عرفنا ابن الرومي شاعراً ذلت له شياطين الشعر - أو آلهته - فأمدوه بأبكار المعاني وغرائب الأخيصة وبدائع الصور . فأين ابن الرومي من الكلام المنشور الذي لا تحدده قافية ، ولا تقيده أوزان ؟ إنه يخاطب الوزير القاسم بن عبيد الله متحدثاً عن نفسه :

فمتى ما أردت صاحب فحص كنت ممن يشارك الحكماء
ومتى ما خطبت مني خطيباً جل خطبي ففاق بي الخطباء
ومتى حاول الرسائل رسل بلغتي بلاغتي البلغاء ^(٧)

(١) « معاهد التنصيص » طبع بولاق ص ٥٦٤

(٢) « الأغاني » ج ٢٠ ص ٨٨

(٣) « عيون الأخبار » المجلد ٣ ص ١٤٣

(٤) المرأة : المرأة وقد حذف المدة لوزن الشعر

(٥) « زهر الآداب » ج ١ ص ٢٥٨

(٦) « لباب الآداب » ص ١٢٢

(٧) « الديوان » شرح الشيخ شريف ص ٤٥ . والرسول هو الترسيل في الكتابة

وينحاطب بنى وهب ومنهم الوزير القاسم قائلا :
 ألم تجدوني آل وهب لمدحكم بشعري ونثري أخطلا ثم جاحظاً^(١)؟
 فهنا إشارتان إلى ترسله في الكتابة وإلى نثره الجاحظي . وفي كتب المختارات
 والأدب نثار من نثر ابن الرومي لا يعدو أن يكون بضع رسائل موجزة في
 الاعتذار ، أو السؤال ، عن مريض ، أو العتاب لنسيانه بالهدية ، أو تفضيل
 النرجس على الورد ، أو التهينة بالعيد^(٢) ، أو الوداد^(٣) . والرسالتان الأخيرتان
 وقعتا لنا أخيراً فيضافان إلى ما كشفه العقاد قبل ذلك من رسائل . وموعداً بها
 جميعاً الفصل الآتي . . .

١٠ - معارضات لابن الرومي

لقد ظفرت بعض القصائد عند بعض الشعراء بمعارضات لها من الوزن
 والقافية . وقد تتفق المعارضة مع القصيدة الأولى في الغرض وقد تختلف عنها .
 فالشاعر شوقي يعارض البحتري في السينية ، ويعارض ابن زيدون في النونية ،
 ويعارض أبا تمام في البائية التي أولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
 ويعارض البوصيري في البردة التي نظمها مدحاً في رسول الله صلى الله عليه
 وسلم . فهل وجد ابن الرومي من يعارضه في إحدى قصائده من أهل جيلنا هذا ؟
 إن لابن الرومي نونية في مدح أبي الصقر الشيباني أولها :

أجنيبك الورد أغصان وكتبان فيهن نوعان : تفاح ورمان
 وهى القصيدة التي أسماها عبيد الله بن طاهر « دار البطيخ » لكثرة ما فيها
 من أسماء الفواكه^(٤) . ودار البطيخ هي الاصطلاح العباسي لما نسميه اليوم
 سوق الفاكهة . ولقد عارض العقاد والمازني وعلى شوقي هذه النونية . فكانت

(١) « ابن الرومي » ص ١٠٢

(٢) « معراج البيان » ص ١٤٥

(٣) « زهر الآداب » ج ٢ ص ١٠٨٥

(٤) « الموشح » للمرزبانى ص ٣٥٧

معارضة العقاد في ١٦٥ بيتاً بعنوان « الحب الأول^(١) » ، ومعارضة المازني في ٧١ بيتاً بعنوان « مناجاة الهاجر^(٢) » .

وقد تأثر المازني بابن الرومي في إضافته المصدر إلى فاعله مع ذكر المفعول به ضميراً متصلاً بدلاً من الضمير المنفصل ، فيقول مثلاً :

فما أحوك على الأيام قافية إلا وفيها على حبيه عنوان
كأن ذكره آيات أرتلها كما يرتل إنجيل وفرقان
بدلاً من حبي إياه وذكرى إياه . وتلك طريقة ابن الرومي ...

أما العقاد فيعرض في مقطع من القصيدة بذوى البطنة والنهم ممن تحتوى
مآدبهم مشوى الطيور ... ولعله كان يستحضر في ذهنه ابن الرومي وهو يصف
أكلة هنية من لحم فروج ولحم فرخ قد عولجت باللوز والجبن والزيتون
والنعنec^(٣) ... فيقول العقاد :

ما ضر قانصها^(٤) أن لا يكون لها غير الفلا وحجاز الأفق قضبان
أين الحمام تشدو في أرائكها من الحمام يشويهن مبطان ؟
أو الطيور على السفود ناضجة من الطيور تهاداهن أفنان ؟
لو أطلقوها كما شئت لكان لهم منها قيان كما شاءوا وندمان ...

وقد يكون عبيد الله بن طاهر تجنى على ابن الرومي وعلى قصيدته الطويلة
هذه حين أسماها دار البطيخ ! فهي في الحق معرض أنيق للحب والمحبين ،
ولهذا أسماها كامل كيلاني « جنة المحبين » ، وجعل العقاد والمازني معارضتهما
بعنوان الحب الأول ، ومناجاة الهاجر . ونحن نوصي بقراءة القصائد الثلاث
في مظانها ، فإن القارئ سيجد فيهن جنات وارفات الظلال ...

(١) « ديوان العقاد » ج ١ ص ٣٧

(٢) « ديوان المازني » ص ١٢٥

(٣) « ديوان ابن الرومي » شرح كامل كيلاني ص ٤١٨

(٤) الضمير يعود على الطيور

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن الرومي

١ - ابن الرومي الشاعر

١ - المدح :

أخو المعالي

قال ابن الرومي يمدح على بن يحيى المنجم ، وكان أديباً شاعراً متكلماً من فضلاء المعتزلة ، ونادم المتوكل على الله العباسي وعدة خلفاء بعده . وبيت المنجم من بيوت العلم في العراق . وقد افتتح الشاعر المدحة ببضعة وعشرين بيتاً في الشيب والشباب ، ثم تخلص إلى مدح ممدوحه قائلاً :

- (١) ظلمتني الخطوبُ حتى كَأَنَّ ليس بيني وبينها من حَسِيبٍ
(٢) سَلَبَتْنِي سَوَادَ رَأْسِي وَلَكِنْ عَوَّضَتْنِي رِيَّاشَ كُلِّ سَلِيبٍ
(٣) عَوَّضَتْنِي أَخَا الْمَعَالِي عَلِيًّا عَوَّضُ فِيهِ سَلَوَةٌ لِلْحَرِيبِ
يَسْتَغِيثُ اللَّهِيْفُ مِنْهُ بِمَدْعٍ مَوْ لَدَى كُلِّ كُرْبَةٍ مُسْتَجِيبِ
أُرِيحِي^(٤) لَهُ إِذَا جَمَدَ الْكَزْ بَنَانٌ تَذُوبٌ لِلْمُسْتَذِيبِ

(١) في الديوان شرح الشيخ شريف سليم أن الممدوح هو يحيى بن علي المنجم وفي القصيدة نفسها ما يدل على أن الممدوح هو علي بن المنجم لا ولده يحيى . والحسيب ذو الحسب ، أي ليس في الأيام ذو جاه يرد غنى غوائلها .

(٢) الرياش أفخر الثياب ، والسليب المسلوب والمعنى أن الممدوح هو عوض لكل مسلوب .

(٣) الحريب المسلوب .

(٤) الأريحي الذي يرتاح للعطاء ، والكز البخيل ، والبنان الأصابع والمقصود الكف الكريمة .

يتلقى المدفعين عن الأبد واب منه بالبشر والترحيب
 لو أبى الراغبون يوماً نداءه لدعاهم إليه بالترهيب
 رب أكرومة له لم تخلها قبله في الطباع والتركيب
 غربته الخلائق الزهر^(١) في الناء س وما أوحشته بالتغريب
 من رآه رأى شواهد تغنى عن سماع الثناء والتجريب
 فيه من وجهه دليل عليه مخبر عن ضريبة^(٢) ذات طيب
 حكم الله بالعلل لعل وبحق النجيب وابن النجيب
 لو دعى^(٣) له فؤاد ذكي ماله في ذكائه من ضرب
 ألمعى^(٤) يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء الغيب
 لا يروى ، ولا يقلب كفاً وأكف الرجال في تقلب^(٥)
 لين عطفه فإن ريم منه مكسر العود كان جد صليب^(٦)
 مفرع للرعاة مرعى خصيب لرعاياهم وفوق الخصب
 في حجاء وفي نداء أمانا ن من الخوف والزمان الجديب^(٧)

(١) أى أن الممدوح كالغريب بين الناس بأخلاقه الزاهرة ولكنها غربة لا توحش .

(٢) الضريبة الطبيعية .

(٣) اللودعى الذكى الخفيف . ومعنى البيت أنه ليس له مثيل في ذكائه .

(٤) الألمعى الذكى المتوقد الذكاء ، فهو يرى أعقاب الأمور من وراء الغيب لشدة ذكائه

وبعد نظره .

(٥) أى أن الممدوح تسعفه بديهته فلا يحتاج إلى تأمل وانتظار ، ولا يقلب كفيه ندماً وحسرة

على الأمور ، لأن أعقابها دائماً تجيء في مصلحته . في حين يقلب الرجال أكتفهم .

(٦) يهتز الممدوح ليناً في عطفه ، فإذا أراد إنسان بكسر عوده كان صليب المكسر .

(٧) في عقله وكرمه مأمن من الخوف ومن جذب الزمان .

أَخْسَنَتْ وَصَفَهُ مَسَاعِيهِ حَتَّى أَفْحَمْتَ كُلَّ شَاعِرٍ وَخَطِيبٍ ^(١)
 قَدْ بَلَوْنَا خِلَالَهُ فَحَمِدْنَا غَيْبَهَا حَمْدَ ذَائِقٍ مُسْتَطِيبٍ ^(٢)
 يَمِّمْتُهُ بِنَا الْمَطَايَا فَأَفْضَتْ مِنْ فَضَاءٍ إِلَى فَضَاءٍ رَحِيبٍ
 بِأَبِي أَنْتَ مِنْ جَلِيلٍ مَهْيَبٍ مَطْلَبُ الْعُرْفِ مِنْهُ غَيْرُ مَهْيَبٍ
 طَنَّبَ الْمَجْدَ بِالْمُكَارِمِ ، وَالْيَدِ تُ بِنَضْبِ الْعِمَادِ وَالتَّطْنِيبِ ^(٣)
 أَعْجَزَ الطَّالِبِيكَ شَاؤُ بَعِيدٍ لَكَ أَدْرَكَتُهُ بُعُوفٌ قَرِيبٍ ^(٤)

بدر بنى بدر

وهنا يمدح ابن الرومى كريماً أديباً معطاء هو أبو عبد الله بن أبي العباس بن بدر . والشاعر هنا
 يجانس بين يوم بدر المشهور الذى أعز الله به الإسلام فى أول أمره ، وبين اسم الممدوح :

بِیَوْمِ بَدْرٍ ^(٥) أَعَزَّ الدِّينَ نَاصِرُهُ وَبَابِنِ بَدْرٍ أَعَزَّ الظَّرْفَ وَالْأَدْبَا
 يَمِّمْتُ بَدْرَ بَنِي بَدْرٍ فَمَا انْتَسَبْتُ أَلْفَاظَهُ لِي ، لَكِنْ وَجْهَهُ انْتَسَبَا
 لَا قِيَتُهُ وَأَنَا الْمَمْلُوءُ مِنْ غَضَبٍ عَلَى الزَّمَانِ فَسَرَّيْ عَنِّي الْغَضْبَا

(١) إن مساعيه الحميدة هى أحسن واصف له ، ناطق عن سبحانه . حتى ليصغر أمامها شعر
 الشعراء وبلاغة الخطباء .

(٢) اخترنا صفاته فحمدنا ما غاب منها كما حمدنا ما نعرفه حمد متذوق لها متمتع بها .

(٣) طنب البيت أى أقام الأطناب التى يشد بها . والممدوح شد بيته بالمكارم . وكل بيت
 لا بد له من عمد وأطناب . كما قال الشاعر الجاهلى :

وَالْيَتِ لَا يَبْتَنِي إِلَّا لَهُ عَمْدٌ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تَرَسْ أَوْتَادُ

(٤) إن مدالك البعيد فى الكرم قد أعجز الذين يريدون أن يبالغوك ، ولكنك أدركته بمعروفك
 القريب .

(٥) أعز الله الإسلام بيوم بدر ، ولكنه أعز بابن بدر - الممدوح - الظرف والأدب .

فلو حلفتُ لما كذبتُ حينئذٍ أنى هناك لقيتُ العُجمَ والعرباً^(١)
أجدى فأحسنَ في الجدوى وأتبعنى حمداً، وأردفنى شُكراً ولا عجباً^(٢)
اللهُ يَكْلُوهُ ، واللهُ يؤنسه فإنه بمعاليه قد اغترباً^(٣)

دعاء

وهنا نرى ابن الرومي يدعو للممدوحه الذي أحياه بالمعروف فيقول :

إذا خاب داعٍ أو تنهى دعاؤه فإني داعٍ والإلهُ مُجيبُ
دُعائِ امرئٍ أحييتَ بالعرفِ^(٤) نفسه وذاكَ دُعاهُ لا يكادُ يخيبُ
أدام لك اللهُ المكارمَ والعلا فإنهما شيءٌ إليك حبيبُ
وأبقاك للمداح يُلقونَ مدحهم إليك على علاَّتِهم وتُثيبُ^(٥)
ففي كل دارٍ فرحةٌ بعدَ ترحه وفي كل نادٍ شاعرٌ وخطيبُ
يقولون بالفضل الذي أنتَ أهله وكلُّهمُ فيما يقولُ مُصيبُ
أعاذك أنسُ المجدِ من كلِّ وحشةٍ فإنك في هذا الأنام غريبُ^(٦)

(١) لقد اجتمعت في الممدوح أكرم خلال العرب والعجم ، ولو حلفت بذلك لم أكن كاذباً .

(٢) لقد أعطى فأحسن في العطية .

(٣) الله يرفع الممدوح ، والله يؤنسه في وحشته ، فإنه بكرمه وعلاه كالغريب بين الناس .

وقد سبق هذا المعنى لشاعرنا في قوله :

غربته الخلائق الزهر في الناس وما أوحشته بالتغريب

(٤) العرف هو المعروف .

(٥) حفظك الله لما دحيك وهم يمدحون على اختلاف أحوالهم من الإجادة والتقصير ، وأنت

تجزئهم .

(٦) إن اتتناسك بالمجد نجاك من أن تكون في وحشة بعلاك لأنك غريب في هذا العالم

بمكارمك . وقد سبق هذا المعنى .

وَتَأْتِيكَ الدَّهْرُ مِنْ كُلِّ سِيٍّ وَجَاءَكَ يَسْتَرْضِيكَ وَهُوَ مُنِيبٌ^(١)
وَلَا زَالٌ لِلْأَعْدَاءِ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَلِلْمَالِ يَوْمٌ مِنْ يَدَيْكَ عَصِيبٌ^(٢)

المصلحون

لقد كان آل طاهر من السادة القواد الذين أوى ابن الرومي إلى ظلهم ، وهم ينسبون إلى الفرس ، وقد خدموا الدولة العباسية في عهد المأمون حيث أبلى طاهر بن الحسين في خدمته . وهنا يمدح ابن الرومي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

كَلَّمَا يَدَيْكَ يَمِينٌ لَا شِمَالَ لَهَا مَخْلُوقَتَانِ لَا مَجَادٍ وَإِنْجَادٍ
تُعْطَى الْجَزِيلَ بَلَا وَعْدٍ تَقْدَمُهُ وَلَا تُعَاقَبُ إِلَّا بَعْدَ إِعْمَادٍ^(٣)
تَبْنِي الْمَكَارِمَ مَرْسَاةً قَوَاعِدُهَا عَلَى مَكَارِمِ آبَاءٍ وَأَجْدَادٍ
يَا آلَ طَاهِرٍ الْأَعْلَيْنِ مَرْتَبَةً لَا زَلْتُمْ رَغْمَ أَعْدَاءٍ وَحُسَّادٍ
أَمْسَى مُجَاوِرَكُمْ يَا أَوْى إِلَى جَبَلٍ صَعْبٍ الْمَرَاقِ وَيَرْعَى جَانِبِي وَادِي^(٤)
مَنْ عَاثَ فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا فَإِنَّكُمْ بَدَلْتُمْ الْأَرْضَ إِصْلَاحًا بِإِفْسَادٍ^(٥)
يَفْدِيكُمْ النَّاسُ إِذَا تَفَدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْكُمْ بِأَفْضَلِ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادٍ

(١) جاءك الدهر تائباً من ذنوبه إليك أو مستغفراً من إساءاته .

(٢) إن الأعداء يلقون من يدك القتل والهلاك . والمال يأتى منهما الإنفاق والإتلاف في الجود ، فأدام الله على أعدائك وعلى أموالك الهلاك والإنفاق .

(٣) يعطى الممدوح أجزل العطاء بلا وعد سابق . ولكنه لا يعاقب إلا بعد إنذار .

(٤) إن المجاور لكم المحتسى بكم يأوى إلى جبل منيع عاصم ، ولكنه في الوقت نفسه يأوى إلى واد خصب ممرع .

(٥) جرى ابن الرومي هنا على الأفصح من إدخال الباء مع الفعل « بدل » على الشيء المتروك كقوله تعالى : (وبدلناهم بحنتهم جنتين) .

هذا ثنائى وهاتيك مناقبكُم يا أغينَ الناس ما أبعدتُ إِشهادى^(١)
فابثُوا بقاءَ مساعيكُم فقد بقيتُ منهن أطواد^(٢) مجدٍ فوق أطوادِ

مستعبد الأحرار

وهنا يمدح أبا العباس بن ثوابة ، بل يمدح آل ثوابة جميعاً ، كمادته فى مدح الفرد مجتمعاً فى آلِه ومنتسباً إلى بيته :

بنى ثوابة لا زالت منازلكم تُلغى مثابة مُدّاح وأشعار^(٣)
تستعبدون بها الأحرارَ دهرَكمُ فكم عبيدٍ لكم فى الناس أحرارِ
لكم علينا امتنان لا امتنانَ به وهل تمنُّ سموات^(٤) بأمطارٍ ؟
أريتمونا عياناً كلَّ مكرمةٍ كانت قديماً لدينا رَجْمَ أخبار^(٥)

أمل

مدح ابن الرومى آل وهب وقد اشتهروا بالكتابة والوزارة . ولقد أطل فى مدائحهم إلى أن شاء الله أن يكون مقتله بالسهم على يد القاسم وزير المعتضد الذى يمدحه الشاعر هنا :

وسائلين بحالى كيف صورتُها فقلتُ : قد نَطَقْتُ حالى لمن عَقلا
قالوا أتأملُ مأمولاً ؟ فقلتُ لهم يؤمِّلُ المرء ما لم يبلغ الأُملا

(١) إن مناقبكُم وثنائى عليها حاضران هنا أمام أعين الناس فهل أبعدتُ الإِشهاد عليها ؟

(٢) الأطواد جمع طود ، وهو الجبل العظيم .

(٣) يدعو لديارهم بأن تظل مقصداً للمادحين والشعراء .

(٤) إنكم تعطون ولا تمنون بالعطاء ، وهل تمن السماء على الرياض حين تجود عليها بالمطر ؟

(٥) لقد أريتمونا المكارم التى كنا نظن أنها أحاديث خرافة أو أخبار غير صادقة ، حتى

بدت منكم رأى العين .

مثل المسافر لا ينفك من سفرٍ حتى إذا هو وافى رَحْلَه نَزَلَ
يا ابن الوزيرين يامن لا انصراف له عن سدّه خللاً ، أو عفوه جَلَلًا ^(١)
كم فعلة لك، بى أرسلتها مثلاً ومدحة فيك لى أرسلتها مثلاً
فتى وإن كان كهلاً في جلالتَه كهلٌ وإن كان غصّاً غصنه خضلاً
صادفت منه بليغاً في مواهبه تعطى يده تفاريق الغنى جُملاً ^(٢)
يلقى الوجوه بوجه ماؤه غدقٌ لا تسأم العينُ منه النهل والعللاً ^(٣)
المال غائبه ، والحمد آيبه والمجد صاحبه ، إن قال أو فعلاً ^(٤)

ب - الهجاء

هجاء البحتري الشاعر

لقد تعاصر الشعاران الكبيران وتصاحبا على يد أبي عثمان الناجم ، ولكن البحتري لم يسلم من لسان ابن الرومي الذي قال يهجوهُ من قصيدة طويلة :

قد قلتُ إذ نَحَلوه الشعرَ : حاش له إن البرؤك به أولى من الخبب ^(٥)
البحتريُّ ذَنُوبُ الوجه تعرفه وما رأينا ذَنُوبَ الوجه ذا أدب ^(٦)

(١) الوزيران هما عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وسليمان بن وهب . وكان الأول وزيراً للمعتضد ، أما الثاني فكان وزيراً للمهتدي . كما كان الممدوح نفسه وزيراً للمعتضد . وسد الخلل هو سد النقص ، أي أن الممدوح لاهم له إلا سد النقص وجليل العفو .

(٢) الممدوح بليغ في كرمه فهو يعطي متفرق الغنى جملة لا تجزئة .

(٣) النهل هو الشربة الأولى ، والعلل هو الشربة الثانية من الماء .

(٤) المال غائبه أي أن المال غائب عنه لأنه ينفقه فلا يبقى في يديه .

(٥) حاشى للبحتري أن يكون شاعراً ، فليقر بعجزه خير من ادعاء المضي فيه . والبرؤك هو

وقوع البعير على صدره والخبب نوع من السير .

(٦) ذنوب الوجه أي في وجهه شعر لحية كالذنب . . .

أَنْتِ يَقُولُ مِنَ الْأَقْوَالِ أَثْقَبَهَا
أُولَى بَيْنَ عَظُمَتْ فِي النَّاسِ لِحْمَتُهُ
الْحِظْ أَعْمَى ، وَلَوْلَا ذَاكَ لَمْ نَرَهُ
وَعَدُّ يَعَافُ مَدِيحَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
قُبْحًا لِأَشْيَاءٍ يَأْتِي الْبَحْتَرَى بِهَا
كَأَنَّهَا حِينَ يُصْغِي السَّامِعُونَ لَهَا
رُقَى الْعِقَارِبُ أَوْ هَذَرُ الْبُنَاةِ إِذَا
وَقَدْ يَجِيءُ بِخَلْطٍ ... فَالْنُّحَاسُ لَهُ
مَنْ رَاحَ يَحْمِلُ وَجْهًا سَابِغَ الذَّنَبِ؟
مَنْ نَحَلَهُ الشَّعْرَ أَنْ يُدْعَى أَبَا الْعَجَبِ (١)
لِلْبَحْتَرَى بَلَا عَقْلٍ وَلَا حَسَبٍ
وَيَطْلُبُ الشَّتْمَ مِنْهُمْ جَاهِدَ الطَّلَبِ
مَنْ شَعْرُهُ الْغَثُّ بَعْدَ الْكَدِّ وَالتَّعَبِ
مَنْ يَمِيزُ بَيْنَ النَّبْعِ (٢) وَالْغَرَبِ :
أَضْحَوْا عَلَى شَعْفِ الْجُدْرَانِ فِي صَخَبِ (٣)
وَلِلْأَوَائِلِ مَا فِيهِ مِنَ الذَّهَبِ (٤)

عَبَقُ الْخَازِي

مدح ابن الرومي إبراهيم بن المدبر وانتظر مكافأته . وطال به الانتظار فإذا بالممدوح يرد عليه القصيدة آبياً لمدحه . وهنا يهجو ابن الرومي قائلا :

رَدَدْتَ عَلَى مَدْحِي بَعْدَ مَظْلٍ وَقَدْ دَنَسْتَ مَلْبَسَهُ الْجَدِيدَا
وَقُلْتَ أَمْدَحُ بِهِ مِنْ شِئْتِ غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ الْمَدْحَ الرَّدِيدَا ؟
وَلَا سِيَمَا (٤) وَقَدْ أَعْبَقْتَ فِيهِ مَخَازِيكَ الْوَوَاتِي لَنْ تَبِيدَا
وَمَا لِلْحَى فِي أَكْفَانٍ مَيِّتٍ لِبُؤْسٍ بَعْدَ مَا امْتَلَأَتْ صَدِيدَا

- (١) أولى بمن طالت لحيمته من ادعائه الشعر أن يدعى أبا العجائب .
- (٢) النبع شجر يعمل منه القوس والسهم ، والغرب نوع من الشجر . وفلان يميز بين النبع والغرب أي يميز بين الجيد والردى .
- (٣) كأن شعر البحتري لخلطه وعدم وضوحه - في رأى ابن الرومي - الكلام الذي يقال لمن لدغته عقرب أو اختلاط أصوات البنائين وهم يصخبون على شعف الجدران أي أعاليها .
- (٤) يتهم ابن الرومي البحتري بسرقة معاني من قبله . فله نحاس المعاني وللسابقين ذهبها .
- (٥) ولا سيما بالتخفيف لوزن الشعر .

خلائق ممسوخة

مدح ابن الرومي قوماً من الرؤساء ، فلما لم يظفر منهم بنوال بعد ما أطلال رشاه فيهم هجاهم بهذه الأبيات :

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلاباً غير ذاتِ خلاقِ
رُدُّوا على صحائفٍ سوَّدتها فيكم بلا حقٍ ولا استحقاقِ
ما كان مثلي مادحاً أمثالكم لولا اتهامي ضامن الأرزاقِ^(١)
أسخطتُ خلاقَ البرية فيكم فبلغتم مني رضا الخلاقِ^(٢)
أغرقتُ في نزعى لكم ، ولربما حرَّم الرماة الصَّيدَ بالإغراقِ^(٣) ..

طول الوجوه

وليت التاريخ أخبرنا عن عمرو هذا الذي هجاه ابن الرومي فافتن في هجائه ، ووصف وجهه بطول كطول وجهه الكلاب .. وأبدع ما في هذه الأبيات أن الشاعر أقحم فيها بيتاً أو وزناً شعرياً بلا معنى ، ثم قال للمهجو إنك فارغ بلا معنى كمثل هذا البيت في وسط الأبيات :

وجْهكَ يا عمرو فيه طولُ وفي وجوه الكلاب طولُ
والكلبُ واف وفيك غدر ففبك عن قدره سُفول
وقد يُحامي عن المواشى وما تُحامي ولا تَصُولُ
وأنت من أهل بيت سوءٍ قصَّتْهم قصةٌ تطولُ

(١) يقول : إن مدح مثلي لأمثالكم هو اتهام الله ضامن الأرزاق .. فإذا بؤت بالإخفاق فأنا المالموم لا أنتم لأنني أنزلت آمالي بغير خالق ..

(٢) لقد أسخطت الله حين مدحتكم فنلتم من رضا الخالق بجرماني أعطيאתكم .

(٣) الإغراق في نزع القوس هو مد وترها بشدة ومبالغة . وقد تكون نتيجة الإغراق في النزع الحرمان من الصيد . وكذلك أنا حرمت عطاءكم حين أغرقت وبالغت في مدحكم .

وجوههم للورى عِظَاتٌ لَكِنَّ أَقْفَاءَهُمْ طُبُولٌ^(١)
 « مستفعلن فاعلن فعولن مستفعلن فاعلن فعول »
 بيت كعنك ليس فيه معنى سوى أنه فضول . . .

ج - الرثاء :

هدية الأب إلى الثرى

مات لابن الرومى ابنه الأول ، فقال يرثيه :

حماه الكرى همُّ سَرَى فتَاوَبَا^(٢) فبات يُراعى النجم حتى تصوَّبَا
 أعينى جُودا لى فقد جدتُ للثرى بأكثر مما تمنعان وأطيبَا
 بُنى الذى أهديته أُمسٍ للثرى فله ما أقوى قناتى وأصلبَا
 فإن تمنعانى الدمعَ أَرْجِعْ إلى أَسَى إذا فترتُ عنه الدموعُ تَلَهَّبَا

شكل السرور

وأبناؤنا مثل الجوارح ، كل جارحة يهلك النفس فقدها . وهنا يرثى الشاعر ولده الأوسط محمداً ،
 فيسمعنا أشجى ألحان الأبوة المفجوعة فى فلذة الكبد ، ومصيبة الولد :

بكاؤكما^(٣) يَشْفَى وإن كان لا يُجْدَى فجودا فقد أودى نظيركما عندي
 ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حَبَّاتِ القلوب على عمد
 توخى حمامُ الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد ؟

(١) أى أقفاؤهم تصلح للضرب والصفع عايتها كالضرب على الطبول .

(٢) الكرى هو النوم ، وتأوب أى قصد بالليل ، وتصوب النجم نزل من علاه أى غاب .

(٣) الخطاب للعينين ، والمعنى أن بكاء العين يشفى من الهم ولكنه لا ينفع ولا يرد فاقداً .

على حين شِمتُ الخَيْرَ من لمحاته
 طواه الردى عني فأضحى مزاره
 لقد أُنجزتُ فيه المنايا وعيدها
 لقد قلَّ بين المهد واللحد لبثه
 ألحَّ عليه النزفُ حتى أحاله
 وظل على الأيدي تَسَاقُطُ^(٤) نفسه
 فيالك من نفسٍ تَسَاقُطُ أنفُساً
 عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطر له
 وما سرَّني أن بعته بثوابه
 ولا بعته طوعاً ، ولكن غَصِبَتْهُ
 وإني وإن مُتَّعتُ بابني بعده
 وأولادنا مثلُ الجوارح أيها
 وآنستُ من أفعاله آية الرُّشدِ
 بعيداً على قُربٍ قريباً على بُعدِ^(١)
 وأخلفت الآمالُ ما كان من وعدِ
 فلم يُنسَ عهدُ المهد إذ ضُمَّ في اللحدِ^(٢)
 إلى صفرة الجادى^(٣) عن حمرة الوردِ
 ويذوى كايذوى القضيْبُ من الرِّندِ^(٥)
 تَسَاقُطُ دُرٌّ من نظام بلا عقد
 ولو أنه أقسى من الحجرِ الصلِّدِ
 ولو أنه التخليدُ في جنة الخلدِ
 وليس على ظلم الحوادث من مُعدِ^(٦)
 لذا كره ما حنت النيبُ^(٧) في نجد
 فقدناه كان الفاجعَ البينَ الفقدِ

(١) المزار مكان الزيارة ، والمعنى أن الميت صار بعيداً على الرغم من قرب مكان دفنه ، قريب المكان ولكنه بعيد المنال إلا بالذكريات . وهو قريب من قول لسان الدين بن الخطيب على لسان الموتى : « بعدنا وإن جاورتنا البيوت » .

(٢) كانت المدة بين مهده ولحده قصيرة جداً ، فلما ضمه القبر لم ينس عهد مهده لقصر ما بين العهدين .

(٣) الجادى نبات الزعفران وهو أصفر اللون .

(٤) تساقط أصلها تتساقط . أى تموت شيئاً فشيئاً . وفي هذا يقول امرؤ القيس .

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

(٥) الرند نبات من شجر البادية طيب الرائحة .

(٦) أعدى فلاناً على فلان أى نصره . أى ليس هناك من ناصر على ظلم الحوادث .

(٧) النيب جمع ناب وهى الناقة المسنة .

لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهُ
 هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
 لِعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ
 ثَكَلْتُ سُرُورِي كَأَنَّهُ إِذْ ثَكَلَتْهُ
 أَرْيَاحَانَةُ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
 سَأَسْقِيكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ^(٢) بِهِ
 أُعِينِي جُودًا لِي فَقَدْ جُدْتُ لِلثَّرَى
 كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ
 الْأُمُّ لَمَّا أَبْدَى عَلَيْكَ مِنَ الْأُسَى
 مُحَمَّدٌ مَا شِئْتُ تَوَهُّمَ سَلَوَةٍ
 أَرَى أَخَوَيْكَ الْبَاقِيَيْنِ كَلِيهِمَا
 إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَذَّةَا
 فَمَا فِيهِمَا لِي سَلَوَةٌ بَلْ حَزَازَةٌ
 وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارِ وَحْشَةٍ
 عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ مَنَى تَحِيَّةَ

مَكَانُ أَخِيهِ مِنْ جَزْوعٍ وَلَا جَلْدٍ^(١)
 أَوِ السَّمْعِ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي؟
 فَيَالَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي؟
 وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَاتِ عَيْشِي أَخْزَاهِدٍ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي؟
 وَإِنْ كَانَتْ السَّقِيَا مِنَ الدَّمْعِ لَا تَجْدِي
 بَأَنْفَسٍ مِمَّا تُسْأَلَانِ مِنَ الرَّفْدِ^(٣)
 وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
 وَإِنِّي لَا أَخْفِي مِنْكَ أَصْفَافَ مَا أَبْدَى
 لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
 يَكُونَانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْرَى^(٤) مِنَ الزَّنْدِ
 فَوَادِي بِمِثْلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصْدِ
 يَهِيْجَانَهَا دُونِي ، وَأَشْقَى بِهَا وَحْدِي
 فَإِنِّي بَدَارُ الْأَنْسِ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِ
 وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

NAME IS
 I am a good + sweet
 to know
 if you
 want to
 see me
 come at the
 main cafe
 every day
 at 11.00 - 12.00

ok
 I'll be
 waiting
 pay now to
 black lace
 cycle brown
 not
 thin or fat
 always
 wear black pants

- (١) الجزوع هو الكثير الجزع ، والجلد هو الصبور على الحوادث .
 (٢) ما أسعدت به أي ما دامت مسعفة لي بالبكاء .
 (٣) الرفد العطاء والمقصود هنا الدموع .
 (٤) أوري من الزند أي أشد إشعالا للنار من الزند الذي يحاك بعضه ببعض فيوقد نارا .

Are you
 SEXUALLY
 OPPRESSED?

أين العزاء ؟

وهذه دمة أخرى للشاعر يبكي بها ولده « هبة الله » ، وقد أوحشت الدنيا بعد موته ، حتى صار يؤثر الأخرى عليها . وما أشد فجيعة الشاعر هنا وهو يسلم في آخر بيت بأن أولادنا هم لنا زينة الدنيا وفتنتها ، فإذا فارقنا فهم المحنة والبلاء :

أُبْنَىٰ إِنَّكَ وَالْعَزَاءُ^(١) مَعًا بِالْأَمْسِ لُفَّ عَلَيْكَمَا كَفَنُ
تَاللَّهِ لَا تَنفَكْ لِي شَجْنًا يَمُضِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ لِي شَجْنُ
مَا أَصْبَحْتُ دُنْيَايَ لِي وَطَنًا بَلْ حَيْثُ دَارُكَ عِنْدِي الْوَطَنُ
مَا فِي النَّهَارِ وَقَدْ فَقَدْتُكَ مِنْ أَنْسَ ، وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكْنُ
وَلَقَدْ تُسَلِّي الْقَلْبَ ذِكْرُهُ أَنِي بِمَا أَلْقَاكَ مُرْتَهَنُ^(٢)
أَوْلَادَنَا ! أَنْتُمْ لَنَا فِتْنُ^(٣) وَتَفَارِقُونَ فَأَنْتُمْ مَحْنُ

(١) العزاء هو التسلي عن الحوادث بالصبر .

(٢) معنى البيت أن الذي يسلي قلبي عن الأحزان فيك تذكري بأنني سألقى المصير الذي لقيته وسألقاك في الدار الآخرة .

(٣) الأبناء فتنة لأبائهم حين يعيشون ، فإذا ماتوا فهم المحنة والمصيبة .

مصرع الشهيد

هذا الشهيد يحيى بن عمر من آل بيت علي ، وكان كثير التدين كثير الخير ، ضيق العباسيون عليه حتى بلغ حالة شديدة من الفقر . وقد خرج على العباسيين ودعا الناس إلى الرضى من آل محمد ، فتبعه ناس من أهل الكوفة ومن الأعراب . ولما كثرت جموعه وقويت شوكته أرسل إليه أدير بغداد محمد بن طاهر عسكريا التقوا به عند قرية « شاهی » قرب الكوفة . فقتل الشهيد وحمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ببغداد ، مجلس يتقبل التهنئات في ذلك . . .

وهذه بعض مرثية ابن الرومي الطويلة الفاجعة لهذا الشهيد . ويقول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران إن البغداديين يستشهدون على تشيع ابن الرومي بهذه القصيدة :

أمامك فانظر أي نهجيك تنهجُ طريقان شتى : مُستقيمٌ وأعوجُ
ألا أيهذا الناس طال ضريركم^(١) بآل رسول الله فاختشوا أو ارتجوا
أكلٌ أوان للنبي محمد قتل زكى بالدماء مُضرجُ ؟
تبيعون فيه الدين شرَّ أئمة فله دينُ الله قد كادَ يَمرجُ^(٢) !
بنى المصطفى كما يأكل الناس شأوكم^(٣) ؟ لبلواكم عما قليل مُفرجُ^(٤)
أما فيهم راع لحق نبيه ولا خائفٌ من ربه يتخرجُ ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكمو كأن كتاب الله فيهم مُجمجُ^(٥)
أبعدَ المكنى بالحسين شهيدكم تضىء مصابيحُ السماء فتسرجُ ؟
أيحيى العلا لهفى لذكراك لهفةً يُباشر مكواها الفؤادَ فينضجُ

(١) الضرير هو الضرر وإيقاع المضرة .

(٢) مرج الأمر أى اختلط واضطرب وفسد .

(٣) الشلو العضو من الجسد والجمع أشلاء .

(٤) المفرج التفريج وانكشاف الأمر بعد الضيق .

(٥) عمهوا أى تحيروا وضلوا . والكتاب هو القرآن الكريم . ومجمج أى غير بين ولا واضح .

أحيان تراءتكَ العيون جَلَاءَهَا
 لمن تَسْتَجِدُّ الأرض بعدكَ زينةً
 سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ
 ألا إنما نَاحَ الجُحُومِ بعد ما
 عفاً على دار ظننتَ لغيرها
 ألا أيها المستبشرون بيومه
 أكلكم أمسى اطمأنَّ مهادهُ
 كدأب « على » في المواطن قبله
 كأنى أراهُ والرماح تنوشه^(٥)
 كأنى أراهُ إذ هوى عن جواده
 فبَّ به جسمًا إلى الأرض إذ هوى
 أجنوا بنى العباس من شَنَاَنكم
 وأقذاءها أضحت مراثيكُ تنسج^(١) ؟
 فتصبح في أثوابها تتبرَّجُ ؟
 عليك، وممدودٌ من الظل سَجَسَجُ^(٢)
 ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزجُ
 فليس بها للصالحين مُعَرَّجُ^(٣)
 أظلتَ عليكم غُمةٌ لا تُفرَّجُ^(٤)
 بأن رسول الله في القبر مُزعجُ ؟
 أبى حَسَنٍ والغُصن من حيث يُخرُجُ
 شوارعَ كالأشطان تدلى وتُخلجُ^(٦)
 وعُفَّرَ بالترُّب الجبينُ المشججُ^(٧) !
 وحَبَّ به رُوحًا إلى الله تعرجُ !
 وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا^(٨)

- (١) أبعد أن كنت قننى لبعض العيون وجلاء لرائيك تصبح شهيداً وتنسج المراثى فى رثائك ؟
- (٢) الظل السجسج هو المعتدل بين الحر والبرد .
- (٣) عرج على المكان أى مال إليه وطاف به . وظعن أى رحل عن المكان . والقرآن يقول :
(تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) .
- (٤) يدعو الشاعر هنا على الذين فرحوا بمقتل الشهيد بأن تظلمهم سخابة من الغم لا تنفرج .
- (٥) تنوشه الرماح أى تتمخطفه من كل جانب .
- (٦) الرماح الشوارع هى القنائم المسددة للطعان . الأشطان جمع شطن وهو الحبل . وتخلج أى تمجذب . شبه ابن الرومى الرماح بأحبال البئر حين تدلى فيها وتنزع منها .
- (٧) الجبين المشجج الذى به شج أى كسر .
- (٨) أجنوا أى أخفوا واستروا . الشنآن البغض . أوكى على القربة أى شد عليها الوكاء أى الرباط . العياب جمع عيبة وهى الحقيبة أو ما يشبهها . أشرح الشئ ضم بعضه إلى بعض وشده .

وإني على الإسلام منكم لخائف ^(١) بوائق شتّى بأبها الآن مُرتجٍ
نظارٍ فإن الله طالبٌ وتره ^(٢) بنى مُصعبٍ لن يسبق الله مُدلجٌ
لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفرُ منكم بالشفاء فتثلجُ !

د - الوصف

ليل أيلول

يقابل شهر أيلول بالرومية شهر سبتمبر من السنة الميلادية . وفيه تبتدئ لذعات البرد وتسكن
الرياح الساجية ، وتحلو السماء الصافية حين ينيرها القمر المطل . وهنا يصف الشاعر هذا الشهر :

لولا فواكهُ أيلولٍ إذا اجتمعت من كل نوع ورقّ الجو والماء
إذن لما حفلت نفسي ^(٣) متى اشتملت على هائلة الجالين ^(٤) غبراء !
يا حبذا ليلُ أيلول إذا برّدت فيه مضاجعنا والريح سجواء ^(٥)
وجمّش ^(٦) القرّ فيه الجلد فأتلقت من الضجيعين أحشاءً فأحشاء !

(١) البوائق جمع بائقة وهي الأمر المهلك .

(٢) نظار أى انتظروا . وهو اسم فعل أمر مثل حذار . والمدلج السارى ليلاً . وبنو مصعب

هم أبناء أسرة طاهر لأن جدهم الأعلى هو طاهر بن الحسين بن مصعب . ويخاطبهم ابن الرومى فى
هذه القصيدة قائلا :

بنى مصعب ما للنبى وأهله علو سواكم ، أفصحوا أو فاجمعوا
والقصيدة كاملة فى ديوان ابن الرومى شرح الشيخ شريف . وفى كتاب « مقاتل الطالبين »
لأبى الفرج الأصبهاني .

(٣) ما حفلت نفسى أى لم آبه ، ولم أبال .

(٤) الجال هو الجانب من الشيء . واشتملت على هائلة الجانبين أى احتوتنى بقعة أرض عظيمة

الجانبين مغبرة الأديم .

(٥) ريح سجواء أى ساجية ساكنة .

(٦) جمش القرّ الجلد أى قرص البرد الجلد ولذعه .

وأسفر القمر السارى فصفحته^(١) رِيًّا^(١) ، لها من صفاء الجولالاء !
يا حبذا نفحة من ريحه سَحَرَا تَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاء !
قل فيه ما شئتَ من شهر تَعَهَّدُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّهُ اللَّهُ بِيضَاء^(٢)

تبرج الدنيا في الربيع

وعندما يأتى الربيع تصور وجوه الأرض صورة فاتنة ، فتروق الدنيا كل ناظر إليها ، وتلبس الأرض أثواباً أنيقة من رائق الزهر ، كأنها أنثى قد أخذت زينتها لاستقبال الرجل :

— أصبحت الدنيا تروقُ مَنْ نَظَرُ بِمَنْظَرٍ فِيهِ جَلَاءٌ لِلْبَصَرِ
أثنت على الله بالاء^(٣) المطرُ فالأرض في روض كأفواف الحبر^(٤)
نيرة النوار زهراء الزهر تبرجت بعد حياء وخفر^(٥)
تبرَّجَ الأُنْثَى تصدَّت للذكر

تهلل السحاب

وعندما يقصف الرعد ويخطف سنا برق الأَبْصَارِ ينحدر ماء الغمام من عيون السماء ، فيغمر البقاع والرَبَى ، وهنا يضحك الروض المزهر لبكاء السماء . فيتفتق نواره عن أجمل الأزهار ، ويتضوع الجو بأنفاس طيبات هي أرج الزهر ، ويفرد المكاء — وهو نوع من القنابر — كأنه طرب مشوق بالغناء :

متهلل زَجِلٌ تَحْنُ رَوَاعِدُ مِنْ حُجْرَتِيهِ^(٦) وَتَسْتَطِيرُ بُرُوقُ
سَدَّتْ أَوَائِلَهُ سَبِيلَ أَوَاخِرِ لَمْ يَدَّرْ سَائِقَهُنَّ كَيْفَ يَسُوقُ

(١) ریا مؤنث ریان أى مملوء بالحسن وكثرة النعمة .

(٢) اليد البيضاء هى المنة والصنيعة الطيبة الغراء .

(٣) الآلاء النعم ومفرده إلى ، وألى . ومنه قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

(٤) الأفواف جمع فوف وهو النقش المخطط . والحبر جمع حبرة وهى نوع من الشيايب الثمينة الفاخرة الملونة .

(٥) الحفر هو شدة الحياء .

(٦) الحجرة الناحية من الشيء .

فَسَخَا وَأَسْعَدَ حَالِيهِ بِدَرَّةٍ^(١) مِنْهُ سَوَاعِدُ ثَرَّةٍ^(٢) وَعُروُقُ
وَتَنَفَسَتْ فِيهِ الصَّبَا فَتَبَجَسَتْ مِنْهُ الْكُلَى فَأَدِيمُهُ مَعْقُوقُ^(٣)
حَتَّى إِذَا قُضِيَتْ لَقِيعَانِ الْمَلَا عَنْهُ حُقُوقُ بَعْدَهُنَّ حَقُوقُ
طَفَقَتْ رَوَايَاهُ^(٤) تَجَرُّ مَزَادَهَا فَوْقَ الرَّبِيِّ وَمَزَادُهَا مَشْقُوقُ
وَتَضَاحَكَ الرُّوضُ الْكَثِيبُ لَصَوْبِهِ حَتَّى تَفْتَقَ نَوْرُهُ الْمُرْتُوقُ^(٥)
وَتَبَسَّمَتْ نَفَحَاتُهُ فَكَأَنَّهُ مَسْكُ تَضَوُّعَ فَاَرُهُ مَفْتُوقُ^(٦)
وَتَغَرَّدَ الْمُكَاءُ^(٧) فِيهِ كَأَنَّهُ طَرِبُ تَعَلَّلَ بِالْغِنَاءِ مَشُوقُ

رياض ذات وشى

وهنا يصف ابن الرومي رياضاً تختال في أزهارها اختيال الفتاة في أثوابها ، وقد كان شاعرنا مفتوناً بالطبيعة مراقباً لصحوات الحياة فيها ، متنبهاً إلى مظاهرها في الدقيق والجليل منها :

وَرِياضٌ تَحَايِلُ الْأَرْضُ فِيهَا خِيَلَاءُ الْفَتَاةِ فِي الْأَبْرَادِ^(٨)
ذَاتَ وَشَى تَنَاسَجَتْهُ سَوَارٍ^(٩) لَبِيقَاتُ بِحَوْكِهِ وَغَوَادٍ^(١٠)

- (١) الدرة هى الدفقة من الحلب .
- (٢) ثرة أى غزيرة الماء .
- (٣) أديم الشيء سطحه وظاهره . ومعقوق أى مشقوق .
- (٤) الروايا جمع راوية وهى الدابة التى تحمل الماء للسقاية . والمزادة ما يوضع فيه الزاد .
- (٥) الصوب هو المطر المنهمر . والنور هو ما يتفتح من نوار الزهر . والمرتوق الذى لم يشق عنه وعاءه . فهو لما يتفق بعد .
- (٦) فارة المسك أى وعاءه الذى يوضع فيه . والمفترق الذكى الرائحة . وفتق المسك شقه ليستخرج منه رائحته .
- (٧) المكاء بضم الميم وتشديد الكاف نوع من الطير يشبه القبرات . والجمع مكاكى .
- (٨) الأبراد جمع برد وهو الثوب .
- (٩) سوار أى ساريات جمع سارية وهى الماشية ، ومنه السرى وهو المشى ليلاً .
- (١٠) غواد جمع غادية وهى السحابة التى تغدو .

شَكَرْتَ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ عَلَى الْوَسْطِ هِيَ ثَمَمَ الْعَهَادِ بَعْدَ الْعَهَادِ ^(١)
 فَهِيَ تُثْنِي عَلَى السَّمَاءِ ثَنَاءً طَيِّبَ النَّشْرِ شَائِعاً فِي الْبِلَادِ
 مِنْ نَسِيمٍ كَأَنَّ مَسْرَاهُ فِي الْأَرْضِ وَاحٍ مَسْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
 حَمَلَتْ شَكْرَهَا الرِّيحُ فَأَدَّتْ مَا تُؤْدِيهِ أَلْسُنُ الْعَوَادِ
 مَنْظَرٌ مُعْجَبٌ تَحِيَّةٌ أَنْفٍ رِيحُهَا رِيحُ طَيِّبِ الْأَوْلَادِ ^(٢)
 تَتَدَاعَى ^(٣) بِهَا حَمَائِمُ شَتَّى كَالْبُؤَاكِي وَكَالْقِيَانِ الشَّوَادِي
 مِنْ مَثَانٍ مُمْتَعَاتٍ قِرَانٍ وَفِرَادٍ مَفْجَعَاتٍ وَحَادٍ ^(٤)
 تَتَغْنَى الْقِرَانُ مِنْهُمْ فِي الْإِيْ لَكَ وَتَبْكِي الْفِرَادُ شَجْوَ الْفِرَادِ

تفضيل النرجس على الورد

لماذا كره ابن الرومي الورد فوصفه أقبح وصف وفضل عليه النرجس ؟ أهو ذوقه الخاص ؟ أم هو سبيل المخالفة إلى المعارفة ؟ أم هي القدرة في تفضيل شيء على شيء ؟ إن حمرة الورد - هي عند ابن الرومي - حمرة الخجل من تفضيل النرجس عليه . . .

خجلت خُدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَفْضِيلِهِ خَجَلًا تَوَرَّدُهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ
 لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمُرَدُّ لَوْنُهُ إِلَّا وَنَاحِلُهُ الْفَضِيلَةَ عَانِدُ ^(٥)

(١) الولي هو المطر بعد المطر . والوسمى أول مطر الربيع . والعهاد جمع عهد وعهدة وهو أول مطر الربيع .

(٢) الروضة الأنف هي التي لم يرعها أحد .

(٣) تتداعى أى يدعو بعضها بعضاً .

(٤) أى تسجع في الرياض حمائم بعضهن أزواج مسرورات بالصحبة ، وبعضهن فرادى

مفجعات بالوحدة . فالأزواج يتغنن في الأيك ، والأفراد الواحد يبكين شجر الوحائد .

(٥) ناحله الفضيلة أى ناسب الفضل والمزية إليه .

للنرجس الفضلُ المُبين وإن أبي آبٍ وحادٍ عن الطريقة حائدٌ^(١)
 فصلُ القضية أن هذا قائدٌ زهرَ الربيع وأن هذا طاردٌ...^(٢)
 شتان بين اثنين هذا موعدٌ بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعدٌ
 وإذا احتفظت به فأمتعُ صاحب بحياته ، لو أن حياً خالدٌ ؟
 يحكى مصايح السماء وتارةً يحكى مصايح الوجوه تراصدٌ^(٣)
 ينهى النديم^(٤) عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع يُساعدٌ !

بعض ليالى بغداد

كانت بغداد في عصر ابن الرومي مائة ليالات صواخب ، يجتمع فيها التجار والكتاب والشرط
 الجهلاء على مائدة ابنة العنب ، ويتمتعون بالمباح وغير المباح من الجوارى اللابسات شفوفاً رقيقة كالهواء
 الرقيق أو كالسراب ...

دُرُّ صهباءٍ قد حكى دُرٌّ بيضا عَرُوبٍ كدُمية المحراب^(٥) !
 تحمل الكأس والحلى فتبدو فتنة الناظرين والشُرَّابِ
 يا لها ساقياً تُدير يداها مستطاباً يُنال من مستطاب^(٦) !

(١) حاد أى مال عن استقامة الطريق .

(٢) قضية الخصومة بين الورد والنرجس التى حكم فيها الشاعر للنرجس هى قضية ظاهرة .
 فالنرجس يظهر فى أول الربيع فهو قائد له ومبشر به . والورد يظهر فى آخر الربيع فهو طارد له . . .
 (٣) مصايح السماء هى النجوم قال تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصايح) سورة الملك ،
 تراصد أى تطلع .

(٤) النديم هو انذى ينادم ويسامر على الشراب .

(٥) الصهباء هنا هى الخمر التى فى لونها حمرة . والبيضاء هى الجارية . العروب المرأة المتحبة
 إلى من يعاشرها .

(٦) المستطاب الأولى هى الخمر التى تديرها الفتاة نفسها ، والثانية هى الفتاة نفسها . فهى طيبة
 تحمل طيباً .

لذة الطعم في يدي لذة العدا ثم تدعو الهوى دعاءً مجاب
 من جوار كأنهن جوار يتسلسلن من مياه عذاب^(١)
 لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب
 ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهم أيّ التهاب!
 فترى الماء ثم والنار والآ لـ بتلك الأبخار والأسلاب^(٢)
 يوجس الليل ركزهن فينجا بـ وإن كان حالك الجلباب^(٣)!
 عن وجوه كأنهن شمس وبدور طلعن غب^(٤) سحب..

أنفاس عباس

كان عباس قارئاً يحسن الصوت وامتداد النفس ، فكأن صوته بقية من أنغام داود . . .
 لله درك يا عباس قارئ^(٥) لقد علوت فلم يبلغك مقياس
 إن كان داود أبقى بعده خلقاً في حسن نغم وجرم^(٦) فهو عباس
 صوت ندى وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس^(٧)

(١) الجوارى الأول جمع جارية بشرية، والثانية اسم فاعل من جرى الماء يجري ، يشبه الجوارى - في طيب رضاهن - بالعيون العذبة الجارية .

(٢) في هذه الحسان يجتمع الأضداد من الماء والنار والسراب .

(٣) الركز هو الصوت الخفي . والمعنى أن الليل يخشى صوتهن فينجل سواده الحالك .

(٤) غب سحب أي عقب سحب . وما أجمل البدر إذا طلع بعد أن كان يحجبه السحاب .

(٥) القارئ صيغة مبالغة للقارئ .

(٦) الجرم بكسر الجيم هو وزن الصوت . وتروى هذه اللفظة « وجرس » .

(٧) أي أن نفس القارئ طويل المدى كأنه أنفاس متعددة .

يظل سامعه لَدُنَّا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس^(١) !
 أحياء لنا سلف القراء كلهم فأسمعونا وهم هام^(٢) وأرماس^(٣)
 لا ينكر الله إثباتي فضيلته ولا الملائكة الأبرار^(٤) والناس ...

حاضنة العود

وهنا يصف الشاعر مغنية وراقصة من بنات الترك، تحتضن عودها المسنود إلى ثديها الناجم، وقد لبست من الشفوف ما يشف عن جمال فاتن . . .

فتاة من الأتراك ترمى بأسمهم يُصبن الحشا في السلم لا في المراك^(١)
 ظللنا لها نصبا تشكُّ قلوبنا بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك^(٢)
 لطيفة قدّ الثدى تسند عودها إلى ناجم في ساحة الصدر فالك^(٣)
 تطامن عن قدّ الطوال قوامها وأربي على قدّ القصار الحواتك^(٤)
 إذا هي قامت في الشفوف^(٥) أضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك ...

(١) فترت أى أوهنت وأضعفت، والمعنى أن صوت هذا القارئة يسكر سامعه فترتخى مفاصله من شدة الطرب .

(٢) الهام جمع هامة وهى الرأس ، والأرماس القبور .

(٣) النيازك جمع نيزك وهو الرمح القصير .

(٤) الفالك هو الثدى المستدير . وقد فلك ثدى الجارية أى استدار .

(٥) الحواتك من النساء القصار الخطى .

(٦) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق الذى يشف عما تحته .

ركوب البحر

ركب الشاعر متن الماء في نهر دجلة فكأنه ركب أهوال البحر المحيط . . . ولم يكن ابن الرومي أخا سفر ولا جواب أرض . وهذه الأبيات من قصيدة طويلة يمدح فيها ابن ثوبة ويصف مشاق رحلته إليه . . .

وأما بلاء البحر عندي فإنه طواني على رَوْع مع الرُّوح واقب^(١)
ولو ثاب عقلي لم أدعْ ذكرَ بعضه ولكنه من هوله غيرُ ثائب^(٢) !
ولم لا ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً لوافيتُ منه القعر أولَ راسبٍ !
ولم أتعلم قطُّ من ذى سباحة سوى الغوص ! والمضعوفُ غير مغالبٍ
فأيسرُ إشفاقٍ من الماء أننى أمرُّ به في الكوز مرَّ المُجانبِ !
لدجلة خبٌّ ليس لليمِّ ! إنها ترائى بجلم تحته جهلٌ واثب^(٣)
تطامنُ حتى تطمئن قلوبنا وتغضبُ من مزح الرياح اللواعبِ !
ترانا إذا هاجت بها الريح هيجة نزلزلُ من زلزالها نَحْو خسفها^(٤)
نؤائلُ موج في غمار زواخيرِ وهذَّاتُ خسف في شطوط خوارب^(٥)

(١) الروع الفرع . والواقب المستكن أو المنتشر . ومنه وقبت الشمس .

(٢) ثاب العقل أى رجع .

(٣) الخب هو المكر والخداع . والواثب هو المشمر للغيظ والشر .

(٤) الحومة هى وسط المعركة وأشدّها هولاً . وحومة الماء والبحر معظمه .

(٥) نؤائل أى نلجأ ونخلص . وخسف السفينة هو جوانبها التى تغور فى الماء وتميل .

وزلزالها : وسطها الذى يتزلزل .

وليمَّ أعذارٌ بعرض مُتونه وما فيه من آذية المتراكب^(١)
ولست تراه في الرياح مززلاً بما فيه إلا في الشِّداد الغوالب^(٢)

وصف سفينة

لقد كانت المطايا تنيخ عند أبواب الممدوحين في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي ، أما في العصر العباسي ، فإن المادح يركب إلى ممدوحه السفن . . . وهنا يصف ابن الرومي سفينة ركبها في رحلته إلى علي بن الفياض . . .

رحلنا^(٣) من بنات البحر جونا^(٤) تهادى بين شبان وشيب
نواجٍ في البطائح مُلقياتٍ حيازما على الهول المهيب^(٥) . .
مزمنة الأواخر سائرات على أصلابها شبه الزيب^(٦)
تكاد إذا الرياح تعاورتها تقوت وفودها عند الهبوب^(٧) .
مسخرة تجوب دجى الليالى يمثل الليل كالفرس الذنوب^(٨)

(١) الآذى هو الموج . والمتراكب الذى يعلو بعضه بعضاً . ومعنى البيت أن البحر معذور إذا هاج وثار عذرا واسعا سعة أطرافه وسطوحه .

(٢) لا تنزل الرياح البحر وما فيه ومن فيه إلا إذا كانت شديدة غالبية .

(٣) رحلنا البحر أى حططنا عليه رحلا من السفن كما يرحل البعير .

(٤) بنات البحر كناية عن السفن . والجون السود .

(٥) نواج أى سرعات وهو تشبيه للسفن بالنياق . والحيازم جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(٦) مزمنات الأواخر أى أواخرها مشدودة شداً متيناً كالزمام للناقة . وأصلاب السفينة هى

أسفلها الذى فيه حنايا وأضلاع تصلب الإنسان .

(٧) تعاورتها الرياح أى اختلفت عليها . والمعنى أن السفينة لسرعتها تكاد تقوت الرياح

وتسبقها .

(٨) مسخرة أى سخرها الله للناس ليركبوا فيها على متن البحار . والفرس الذنوب هو الفرس

ذو الذيل الضافى المسبل . ويشبه الشاعر السفينة فى سوادها بالفرس الأسود .

أَبَتْ أَعْجَازُهَا بِمَقْدَمَاتٍ لَهَا إِلَّا مَطَاوِعَةَ الْمَجِيبِ^(١)
 غَنِينَ عَنِ الْمَقَادِمِ وَالْهُوَادَى وَعَنِ إِسْرَاجِهِنَّ لَدَى الرُّكُوبِ^(٢)
 حَطَطْنَ بِوَاسِطٍ مِنْ بَعْدِ سَبْعٍ^(٣) وَقَدْ مَالَ الشَّرُوقُ إِلَى الْغُرُوبِ

ليلة في خان

في رحلة ابن الرومي إلى ممدوحه ابن ثوبة اضطر أن يبيت - خلال الطريق - في خان قديم البناء متداعى السقف ، يكف من خلال ثقبه ماء المطر . فرصفه قائلاً :

فَمَلْتُ إِلَى خَانٍ مُرْتٍّ بِنَاؤُهُ مَمِيلٌ غَرِيقٌ الثُّوبُ لَهْفَانٌ لَاغِبٌ^(٤)
 فَلَمْ أَلْقَ فِيهِ مُسْتَرَاحًا لِمَتَّعِبٍ وَلَا نَزْلًا ، أَيَّانَ ذَاكَ لِسَاغِبٍ^(٥) ؟ !
 قَمَا زَلْتُ فِي خَوْفٍ وَجُوعٍ وَوَحْشَةٍ وَفِي سَهَرٍ يَسْتَفْرِقُ اللَّيْلَ وَاصِبٌ^(٦)
 يُوْرِقُنِي سَقْفٌ كَأَنِّي تَحْتَهُ مِنْ الْوَكْفِ تَحْتَ الْمَدَجِّنَاتِ الْهُوَاضِبِ^(٧)
 تَرَاهُ إِذَا مَا الطِّينُ أَثْقَلَ مَتْنَهُ تَصْرُ نَوَاحِيهِ صَرِيرُ الْجَنَادِبِ^(٨)

(١) الأعجاز هي مؤخرات السفينة . أى أنها مطيعة لمن يسير دفتها .

(٢) المقادِم هي مقدمات الرحل للبعير . والهوادى أول ما يطلع من الإبل في المشى .

والمعنى أن هذه السفن قد استغنت عن عدة الرحل وعن وضع السرج كالمطايا .

(٣) سبع أى سبع ليالٍ وهى مدة رحلة السفينة التى ركب الشاعر فيها البحر .

(٤) المرث البالى . مميل غريق الثوب أى ميل غريق الثوب . اللاغب الذى أعياه السير وأجهده .

(٥) مستراحاً أى مكاناً للراحة من التعب . والساغب الجائع المتعب .

(٦) الواصب الدائم الثابت .

(٧) الوكف سقوط المطر . المدجنات الأمطار الغزار . والهواضب التى يدوم مطرها فلا

ينقطع .

(٨) صرير الجنادب أى صوت الجراد .

أسد

لقد وصف شعراء العربية الأسد كالمتمني وابن حمديس الصقلي ، كما رويت قصيدة لبشر بن عوانة يصف بها أسداً صرعه ، وقيل إنها من وحى الخيال لا من صميم الواقع . ونحن هنا نذكر وصف ابن الرومي للأسد ، مما يضيفه إلى قائمة وصافي الأسود . . .

مُسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَمِنْهُمْ ضَيْغَمٌ	وَمِنْهُمْ ضِرْغَامٌ ، وَمِنْهُمْ قَسُورٌ
لَهُ جَنَّةٌ لَا تَسْتَعَارُ وَشَكَّةٌ	هُوَ الدَّهْرُ فِي هَذِي وَهَذِي مَكْفَرٌ ^(١)
إِهَابٌ كَتَجَافِ الْكَمَى حَصَانَةٌ	وَعُوجٌ كَأَطْرَافِ الشَّبَاحِينَ يَفْغَرُ ^(٢)
وَحُجْنٌ كَأَنْصَافِ الْأَهْلَةِ لَا يَنِي	بِهِنَّ خَضَابٌ مِنْ دَمِ الْجُوفِ أَحْمَرُ ^(٣)
تَظَلُّ لَهُ غُلْبُ الْأَسْوَدِ خَوَاضِعًا	ضَوَارِبَ بِالْأَذْقَانِ حِينَ يَزْجُرُ
لَهُ ذِمَرَاتٌ حِينَ يُوعَدُ قِرْنُهُ	تَكَادُ لَهَا صُمُّ السَّلَامِ تَقْطَرُ ^(٤)
يَرَاهُ سُرَاةَ اللَّيْلِ وَالْدَّوْءُ دُونَهُ	قَرِيبًا بِأَذْنَى مَسْمَعٍ حِينَ يَزَارُ ^(٥)

(١) الجنة هي سترة الأسد التي تقيه كالجن أي الترس . الشكة هي السلاح . ومكفر أي مستور . ومنه قولهم : الليل كافر أي سائر . والمعنى أن الأسد مستور في سلاح له دائم لا يستعار ولا يخلع كالسلاح .

(٢) التجفاف نوع من الدروع ، والعوج الأنياب . وأطراف الشبا هي أطراف الرماح أو السيوف . ويفغر أي يفتح فيه .

(٣) الحجن جمع حجناء وهي الأذن المائلة . كأنصاف الأهلة أي أن الأذن تشبه نصف الهلال في شكلها .

(٤) الذمرة هي زئير الأسد . يوعد أي يهدد . وصم السلام أي الحجارة الجامدة . والسلام على وزن كتاب والواحدة سلامة على وزن فرحة . وتقطر أي تتفطر وتنشق .

(٥) الدو البرية الواسعة . أي حين يزأر الأسد يظنه السارون ليلاً قريباً منهم مع أن بينه وبينهم شاسع المسافات .

يُدِيرُ إِذَا جَنَّ الظَّلامَ حِجَاغَهُ شَهَابَ لَظْيٍ يَعَشِيْ لَهُ الْمُتَنَوِّرُ^(١)
 شَدِيدُ الْقُوَى، عِبِلُ الشَّوَى، مُؤْجِدُ الْقَرَا مُلَاحِكُ أَطْبَاقِ الْفَقَارِ ، مُضَبِّرُ^(٢)
 أَخُو وَحْدَةٍ تُغْنِيهِ عَنْ كُلِّ مُنْجِدٍ لَهُ نَجْدَةٌ مِنْهَا وَنَصْرٌ مُوزَّرٌ ...

ثَقِيل

لقد أبدع ابن الرومي في وصف الثقلاء والعمور والحذب وذوى العاهات جملة . حتى لقد صورهم في أكثر مباحثهم إضحاكاً وإثارة للسخرية . وهنا وصفه لثقليل :

يَا أَبَا الْقَاسِمِ الَّذِي لَيْسَ يَدْرِي أَرْصَاصُ كَيْانِهِ أَمْ حَدِيدُ
 أَنْتَ عِنْدِي كَمَا بَرَّكَ فِي الصَّيِّ فَ ثَقِيلٌ يَعْلُوهُ بَرْدٌ شَدِيدٌ !!

ثَقِيل آخِر

يظهر أن ابن الرومي كان موعوداً بالثقلاء في حياته ، حتى ليعجب أبو هلال العسكري من دقة معانيه في وصفهم . والأبيات التالية من قصيدة في ثقليل اسمه « فضيل » :

أَنْتَ فَضْلٌ^(٣) ، وَفَضْلَةُ الشَّيْءِ لَعْوٌ ثُمَّ أَرْدَفْتُ ذِلَّةَ التَّصْغِيرِ !
 حَقَّرَ الْفَضْلُ ثُمَّ صَغُرَتْ عَنْهُ زَادَكَ اللَّهُ يَاصْغِيرَ الْحَقِيرِ !
 قَبُولُ النُّفُوسِ إِلَيْكَ عِنْدِي آيَةٌ فِيكَ لِلطَّيْفِ الْخَبِيرِ

(١) الحجاج هو عظم الحاجين . والمعنى أن عين الأسد في ظلام الليل ترسلان ناراً تصيب الناظر إليها بالعشى .

(٢) عبل الشوى أى ضخم الأطراف . ومؤجد القرا أى قوى الظهر . والملاحك فقار الظهر هو المتداخلة فقاره بعضها في بعض . والمضبر الذى تلتزمت عظامه واكتنز لحمه .

(٣) الفضل هو الزيادة من كل شيء والزيادة لغو وفضول .

إِنْ قَوْمًا أَصْبَحَتْ تَنْفُقُ^(١) فِيهِمْ لَعَلِّي غَايَةً مِنْ التَّسْخِيرِ
يَا ثَقِيلًا عَلَى الْقُلُوبِ ، خَفِيفًا فِي الْمَوَازِينِ دُونَ وَزْنِ النَّقِيرِ^(٢)
طَرُّ سَخِيفًا ، وَقَعُ مَقِيمًا ، فَطُورًا كَسْفَاةً ، أَوْتَارَةً كَثِيرًا^(٣) !...

هـ - الغزل

جراح القلوب

ولم لايفتتح ابن الرومي مدائحه بالغزل والنسيب على عادة الشعراء قبله؟ لقد مدح الحسن بن إسماعيل القاضي بمدحة استهلها بالنسيب الآتي :

الْحُبُّ رِيحَانُ الْحُبِّ وَرَاحُهُ وَإِلَيْهِ إِنْ شَحَطْتَ نَوَاهُ طِمَاحُهُ^(٤)
يَغْدُو الْحُبُّ لَشَانَهُ وَفَوَادُهُ نَحْوَ الْحَبِيبِ غَدُوهُ وَرَوَاحُهُ ..
يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ بَيْتٌ مُعَانِقِي وَيَدَايَ مِنْ دُونَ الْوَشَاحِ وَشَاحُهُ؟!
ظَبِي أَصَحَّ وَأُمْرَضْتُ أَلْحَاطَهُ وَالْحَسَنُ حَيْثُ مَرَّاضُهُ وَصَحَّاحُهُ^(٥)
يَغْدُو فَتَكْثُرُ بِاللَّحَاطِ جِرَاحُنَا فِي وَجْنَتَيْهِ ، وَفِي الْقُلُوبِ جِرَاحُهُ^(٦)
مَنْ قَائِلٌ عَنَى لِمَنْ أَحْبَبْتُهُ ! هَلْ يُنْقَعُ اللَّوْحُ الَّذِي أَلْتَاخُهُ^(٧) ؟

(١) تنفق أى تروج .

(٢) النقير هو النكتة الصغيرة في ظهر النواة . ويضرب بها المثل في تفاهة الشأن .

(٣) المقيت البغيض المكروه . السفاة هى حسكة « شوكة » سنابل القمح وهى مضرب المثل

في الخفة مع التفاهة . وثبير اسم جبل ببلاد العرب .

(٤) الراح الخمر . شحطت النوى أى بعد الفراق . الطماح التطلع والطموح .

(٥) الألحاط المريضة أى العيون الفاترة المتكسرة .

(٦) أى نحن نجرحه في خديه بنظرات عيوننا إليه ، وهو يجرح قلوبنا بحبه .

(٧) اللوح هو الظم الشديد . والمعنى هل يروى عطشى الذى أعانيه نحو الحبيب ؟

هل أنت مُنْصَفُ عاشقٍ متظلمٍ طُولُ النحيبِ شكاته وصياحه ؟
 قسماً لقد خيَّمتُ منك بمنزل لى حَزْنُهُ ، ولمن سواى بطاحه^(١)
 ما بال ثغرك مَشْرَباً ، لى سَكْرُهُ ولمن سِوَاى - فدتك نفسى - راحه ؟

دموع الفراق

ما أشبه دموع الفراق عند التوديع بقطرات من الندى ، يقطرن من عيون كالنرجس على حدود كالورد ...

لو كنت يومَ الفراق حاضراً وهُنَّ يُطفئن غَلَّةَ الوجدِ
 لم ترَ إلا دموعَ باكيةٍ تقطر من مُقلَّة على خد^(٢)
 كأن تلك الدموع قَطْرُ نَدَى يَقْطُر من نَرْجِسٍ على وردٍ ..

ملامة العشاق

إن لوم العاشقين يغريهم بزيادة الحب والإيمان فيه ، كما تغرى الريح النار بشدة الإحراق .
 وليس للمحب من دواء غير زورة من الحبيب !

لا تكثرن ملامةَ العشاق فكفاهم بالوجد والأشواق
 إن البلاء يُطاق غيرَ مُضَاعَفٍ فإذا تضاعف كان غير مُطاق
 لا تطفئن جَوَى بلومٍ ، إنه كالريح تُغرى النارَ بالإحراق
 ما للمحب إذا تفاقم داؤه غيرُ الحبيب يزوره من راقٍ

(١) لقد نزلت منك أيها الحبيب منزلاً لى وعورته وصعابه ، ولغري سهوله وبطاحه .

(٢) المقلَّة هى العين .

عذاب الحسن

حين يصيب الحسن مواقع اللحاظ فإنه يصيب القلوب بالعذاب . ولماذا كتب الله على المحبين الشقاء والعذاب ؟ إن الحبيبة حين تذنب بتعذيب الحبيب ، فالدعاء لها منه خالصاً بأن يجنبها الله هي العذاب وقصاص العقاب . . .

نَصَبْتُ حَبَائِلَ حَسَنَهَا فَاصْطَدْنِي ثم انتحيت قلبي بنبل عَذَابِهَا^(١)
 هل في الشريعة نَصْبٌ صَيْدٍ حَاصِلٍ للنبل ترشقه يدٌ بَصُوبِهَا^(٢) ؟
 صَدٌّ وَهَجْرَانٌ وَطَوْلُ تَعْتَبٍ وأشدُّ منه ضُحٌّ بِعَتَابِهَا^(٣) . .
 ما بالها سيفاً على مُسَلَّطٍ ولقد أتيتُ محبتي من بابها ؟
 ياربُّ أَنْ وَجَبَ الْعِقَابُ فَوْقَهَا^(٤) بي من عِقَابِ ذُنُوبِهَا وحسابها !

القرب والبعد

ألم يقل عمر بن أبي ربيعة في رائيته المشهورة :

فلا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيتها يُسْلَى ولا أنت تصبرُ

وهنا يقول ابن الرومي في هذا المعنى :

أراها فأزدادُ اشتياقاً وصَبَوةً وإن نزحت فالموتُ دون نزوحها^(٥)

(١) الحبائل جمع حباله وهى ما يصاد به . والنبل ما يرمى به والجمع نبال .

(٢) متى وقع الصيد فهل في الشريعة أن يظل يرمى بالنبال مع أنه حصل فعلاً في اليد ؟ والصباب

البقية من الشئ .

(٣) التعتب الإلحاح في طلب العتاب والتغضب .

(٤) وقفها أى صنفاً واحفظها ، فلا تعاقبها بما أسلفت إلى من الذنوب ؟

(٥) النزوح البعد ، والصبوة الشوق والهوى الشديد .

فليس شفاء النفس مما أجنه لعفراء إلا لزَّ رُوحى بروحها^(١)
و « عفراء » هي فتاة ابن الرومي ، أو كناية عنها ، كما كانت « نعم » لابن
أبي ربيعة .

و - شعر الحنين إلى الأوطان

علة الحنين

حب الوطن فطرة في النفس ، حتى ليجرى مجرى الدم في المفاصل . ولكن لماذا يحب الناس
أوطانهم ؟ إن ابن الرومي هنا يعمل لنا ذلك أصدق تعليل :

ولى وطن آليت أن لا أبيعهُ وأن لا أرى غيْرَ له الدهرَ مالكا^(٢)
عمرتُ به شرخَ الشباب^(٣) منعماً بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا . .
وحبَّ أوطانَ الرجال إليهم ماربُ قضَّاهُ الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهم عهودَ الصِّبا فيها فحنَّوا لذلكا
فقد ألفتَه النفسُ حتى كأنه لها جسد ، إن بان غودِرَ هالكا^(٤)

(١) لزَّ الروح بالروح أى ألصقها بها .

(٢) ليس وطن ابن الرومي هنا إلا داره التى اغتصبها منه رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل
وأجبره أن يبيعها . فتوجه الشاعر إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يشكو إليه . انظر « زهر الآداب »

ج ٢ ص ٦٨٢ .

(٣) شرخ الشباب مستهله وأوله .

(٤) بان أى افترق وبعد . غودر أى ترك أو صار .

ز - البكاء على الشباب

عهد الشيبه

وقف ابن الرومي في مستهل مدحه لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يستقبل المشيب ، ويحن إلى
نضارات الشباب وعهوده التي سقاها الله طيب العهاد :

كفى بالشَّيب من ناهٍ مُطاعٍ على كُرهٍ ومن داعٍ مُجابٍ
حَطَّطْتُ إلى النُّهى رَحلى وكَلَّتْ مطيةٌ باطلي بعد الهبابِ (١)
وقلتُ مسلماً للشَّيب : أهلاً بهادى المخطئين إلى الصواب !
أَلستَ مبشِّرِي في كلِّ يومٍ بوشكٍ ترحلى إثرَ الشباب ؟
لقد بشرتني بلحاق ماضٍ أحبَّ إلىَّ من برِّدِ الشرابِ (٢)
فلستُ مسمِّياً بُشراك نعيّاً وإن أوعدت نفسي بالذهابِ ! (٣)
لك البشرى ! وما بُشراك عندي سوى ترقيع وهيك بالخضابِ ! (٤)
وأنتَ وإن فتكتَ بحبِّ نفسي وصاحبٍ لذتي دون الصحابِ
فقد أعتبتني وأمتَّ حقدى بحثك خلفه عَجلاً رِكابى (٥)
إذا الحَقَّتني بشقيق عيشى فقد وفَّيتني فيه ثوابى

(١) النهى العقل . أى رجعت إلى العقل عند المشيب . وتعبت مطية با طلى وهوى بعد أن كانت مسرعة نشيطة .

(٢) أيها الشيب : لقد بشرتني بأننى سألحق ما مضى من شبابى ومن ما ضى الذى كان أندى على القلب من الشراب البارد .

(٣) إن حلولك أيها الشيب وإنذارك لى لا أسميه نعيّاً ، وإن كان يؤذنى بقرب أجلى من الموت .

(٤) الوهى : تعرق الثوب وتشققه . وسيلجأ الشاعر إلى الخضاب « الصبغة » ليرقع وهى الشباب .

(٥) إذا كنت أيها المشيب قد فتكت بالشباب الذى هو إلف نفسى وحبيبها فإنك قد أرضيتنى

حين أعجلت خطاى بالذهاب بعد ذهابه — أى بفقدى .

وحسبي من ثوابي فيه أنى
لعمرك ما الحياة لكل حى
فقل لبنات دهرى فلتصبنى
سقى عهد الشبية كل غيث
ليالى لم أقل : سقى لعهد
يذكرنى الشباب صدى طويل
يذكرنى الشباب هوان عتي
يذكرنى الشباب سهام حثف
رمت قلبي بهن فأقصده
فراحت وهى فى بال رخي
وكل مبارز بالشيب قرناً

وياه نثوب إلى مآب
إذا فقد الشباب سوى عذاب
إذا ولّى بأسهمها الصياب^(١)
أغرّ مجلجل داني الرّباب^(٢)
ولم أرغب إلى سقى سحاب !
إلى برّد الثنايا والرّضاب^(٣)
وصدّ الغانيات لدى عتابي^(٤)
يصبّن مقاتلي دُون الإهاب^(٥)
طلوع النبل من خلل النقاب^(٦)
ورُحْتُ بلوعة مثل الشهاب
فمُسبى — لعمرك — غيرُ سابي^(٧)

(١) بنات الدهر خطوبه وأحداثه . والأسهم الصياب أى الصحيحة المصيبة المقاتل . ويقصد الموت .

(٢) الغيث المجلجل هو الذى له صوت لكثرتة وشدته . والرّباب السحاب الأبيض . ويدعو الشاعر هنا لعهد الشباب بالخصب والسقى والنضارة التى لن تعود .

(٣) الصدى العطش الشديد . وبرد الثنايا أى الأسنان الشبيهات بالبرد الناصع بياضاً . والرّضاب أعذب الريق .

(٤) إن مما يذكرنى بعهود الشباب هو هوانى على النساء اليوم وصدّهن عن عتابي . ويؤيد هذا قول الشاعر :

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب

(٥) سهام حثف أى سهام قواثل يصبّن من جسمى مقاتل ولا يصبّن الجلد فحسب .

(٦) أقصده أى أصابت منه مقتلاً . امرأة طلوع النبل أى كثيرة النبال التى تطاع من عينها . فنظراتها كالنبال تقتل وتعمى . ومن خلل النقاب أى من خلال البرقع الذى على وجهها .

(٧) إن من يبارز قرنه ونظيره فى الحرب بالمشيب فهو مأسور لا محالة وليس بأسر .

ولو شهد الشبابَ إذن لراحت
 فياغوثًا هناك بقيد ثأرى
 يذكرنى الشبابَ جنانُ عدن
 تفِي ظِلِّها نفحاتُ ريحٍ
 إذا ماستْ ذوائبها تداعت
 يذكرنى الشبابَ وميضُ برقٍ
 فيا أسفًا ويا جزعًا عليه
 أفجعُ بالشباب ولا أعزى ؟
 تفرقنا على كرهٍ جميعاً
 وكانت أيكى ليدِ اجتناءٍ
 أيا بُردَ الشباب لكنتَ عندي
 بليتَ على الزمان وكل بُردٍ
 وعزٌّ على أن تبلى وأبقى
 وإنَّ بها - وعيشك - ضعف ما بى
 إذا ما الثأرُ فات يدَ الطالب^(١)
 على جنّبات أنهار عذاب
 تهزُّ متون أغصانٍ رطاب
 بواكى الطير فيها بانتحاب
 وسجعُ حمامة ، وحنينُ ناب^(٢)
 ويا حزنًا إلى يوم الحساب !
 لقد غفل المعزّى عن مصابى !
 ولم يك عن قلى طول اصطحاب^(٣)
 فعادت بعده ليدِ احتطاب^(٤)
 من الحسنات والقسم الرّغاب
 قَبين بلى ، وبين يد استلاب
 ولكنّ الحوادث لا تحابى

- (١) يتحسر الشاعر على أنه في المشيب لا يستطيع أن يدرك ثأره من الحسان اللائى قتلته ولم يستطع منهن إدراك الثأر .
- (٢) الناب المستنة من الإبل . والمعنى أن مما يذكرنى بالشباب هو ما تقضى لى فيه من لمع البرق وسجع الحمام وحنين الإبل .
- (٣) القلى : البغض . تفرقت أنا والشباب على كره منى لفراقه . ولم يكن تفرقنا لكرهه صحبته الطويلة . فإن صحبته - مهما طال - لا تمل .
- (٤) كانت أيكى فى عهد الشباب للجنى وقطف الثمار ، وهى الآن ذابلة ليس فيها إلا أعواد متقصفة للاحتطاب .

لبستك برهةً لبسَ ابتذال على علمى بفضلك فى الثياب^(١)
ولو مُلكت صَوْنَكَ فاعلمنه لصنُتكَ فى الحرير من العياب^(٢)

بياض المشيب

أين بياض شعر الرأس فى المشيب من بياض الشباب والعارضين ؟ إن بياض المشيب ذميم
يحتال على إخفائه بالسواد والخضاب ، وهنا يبكى الشاعر المفجوع فى شبابه على فقدان الشباب
ورزيتة فيه :

خيلى ما بعد الشباب رزية يحجم لها ماء الشئون ويُعتد^(٣)
شبابُ الفتى مجلوده وعزاؤه فكيف وأنى بعده يتجلد^(٤)
وفقدُ الشباب الموتُ يوجد طعمه^(٥) صُراحاً وطعم الموت بالموت يفقد^(٥)
سُلبت سواد العارضين وقبله بياضهما المحمود إذ أنا أمرد^(٦)
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضاً ذمياً لا يزال يُسود^(٦)
لشتان ما بين البياضين : مُعجب^(٧) أنيق ، ومشنو إلى العين أنكد^(٧)

(١) لبستك أيها الشباب برهة . لبساً لا صون فيه ولا حفظ على الرغم مما أعلمه من فضلك
بين الثياب جميعاً .

(٢) العياب جمع عيبة وهى محافظ الثياب « الحقيبة أو الشنطة » .

(٣) يحجم لها ماء الشئون أى يغزر لها ماء العيون . ويعتد أى يهياً ويكون حاضراً .

(٤) إن الشباب هو عدة المرء على الجلد والعزاء ، فكيف يتجلد بعد ذهابه ؟

(٥) إذا كان طعم الموت يفقد بالموت ، فإن فقد الشباب هو الموت الصراح الذى لم يفقد

طعمه . . .

(٦) العارضان صفحتا الجلد . وسوادهما هو سواد شعرهما . وبياضهما هو بياض بشرتهما .

والأمرد القصير الشعر .

(٧) إن بياض الجلد يعجب ، ولكن بياض الشعر بغض مكرهه إلى العين .

وكنْتُ جِلاءً للعيون من القذى
 هي الأعين النُّجْلُ التي كنت تشكي
 فمالك تأسى الآن لما رأيتهَا
 تشكى إذا ما أقصدتكَ سهامُهَا
 كذلك تلك النُّبْل من وقعتْ به
 وعزَّاك عن ليل الشباب معاشرُ
 وكان نهارُ المرء أهدى لسعيه
 أقولُ وقد شابت شواتي وقوَّست
 لما تُؤذَن الدنيا به من صروفها
 وإلاَّ فما يُبيكيه منها وإنها
 فقد جعلتْ تقذَى بشيبي وترمد
 مواقعها في القلب والرأس أسود !
 وقد جعلت مرمى سواك تعمداً^(١)
 وتأسى إذا نُكِبْنَ عنك وتكد^(٢)
 ومن صُرفت عنه من القوم مُقصدُ
 فقالوا : نهار الشيب أهدى وأرشد
 ولكنَّ ظل الليل أندى وأبرد !^(٣)
 قناتي ، وأضحت كدنتي تتخذ^(٤)
 يكون بكاء الطفل ساعةً يُولدُ
 لأفسحُ ممَّا كان فيه وأرغد ؟

ح - الحكمة والمثل

إنَّ من لام جاهلاً لطيبُ يتعاطى علاجَ داءٍ عياءٍ^(٥)

* * *

- (١) مالك تحزن الآن بعد الشيب على العيون النُّجْل التي كانت تصيب مواقع قلبك في شبابك ثم انصرفت عنك اليوم إلى غيرك ؟
 (٢) لقد كنت تشكو العيون حين كن يرمينك بسهامهن ، واليوم تشكو لأنهن لا ينظرن إليك ولا يأبهن بك !
 (٣) حين يعزيك قوم بأن بياض الشيب هو كهداية النهار ، فقل لهم : هذا حق ! ولكن سواد ليل المشيب أندى على الأكباد !
 (٤) الشواة قحف الرأس وجلدته ، والقناة عمود الظهر ، والكدنة امتلاء لحم الجسم ، وتتخذ أي تصيح ذات حدود وشقوق .
 (٥) الداء العياء هو الداء الذي يستعصى علاجه .

إِنَّ بَحْثَ الطَّيِّبِ عَنْ دَاءِ ذِي الدَّاءِ لَا أَسُّ الشِّفَاءِ قَبْلَ الشِّفَاءِ

* * *

تَوَقَّى الدَّاءَ خَيْرٌ مِنْ تَصَدَّقَ لِأَيْسَرِهِ وَإِنْ قَرُبَ الطَّيِّبُ

* * *

إِذَا غَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا غَمَرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

* * *

نعمة الصحة والقناعة

إِذَا مَا كَسَاكَ اللَّهُ سِرْبَالِ صِحَّةٍ (١) وَلَمْ تَخْلُ مِنْ قُوْتٍ يَحِلُّ وَيَعْذُبُ
فَلَا تَغْبِطَنَّ الْمَتْرَفِينَ فَإِنَّهُمْ عَلَى حَسَبِ مَا يَكْسُوهُمْ الدَّهْرُ يَسْلُبُ

ليس عن البصير مذهب

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَفِيهِ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبٌ
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُنْجِي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارَهُ دَهِرٍ لَيْسَ عَنْهُمْ مَهْرَبٌ (٢)

(١) سِرْبَالِ الصِّحَّةِ هُوَ ثَوْبُهَا الَّذِي تَبْدُو فِيهِ .

(٢) وَهَلْ يَهْرَبُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَكَائِدِ الدَّهْرِ ؟ أَلَمْ يَقُلِ الشَّاعِرُ الْقَدِيمُ :

وَأَتَتْ كَالدَّهْرِ مَبِثُوثًا حَبَائِلُهُ وَالِدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرْبَ

بين الإقدام والإحجام

أَذَاقَتْنِي الْأُسْفَارَ مَا كَرَّهَ الْغِنَى إِلَى وَأَغْرَانِي بِرَفْضِ الْمَطَالِبِ
فَأَصْبَحْتُ فِي الْإِثْرَاءِ أَزْهَدَ زَاهِدٍ وَإِنْ كُنْتُ فِي الْإِثْرَاءِ أَرْغَبَ رَاغِبِ
حَرِيصًا جَبَانًا أَشْتَهَى ثُمَّ أَنْتَهَى بِلَحْظِي جَنَابَ الرِّزْقِ لِحَظِ الْمُرَاقِبِ^(١)
وَمِنْ رَاحِذَا حَرَصٍ وَجِبْنٍ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ أَتَاهُ الْفَقْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
تَنَازَعْنِي رَغْبٌ وَرَهْبٌ كِلَاهُمَا قَوِيٌّ ، وَأَعْيَانِي أَطْلَاعُ الْمَغَائِبِ
فَقَدَّمْتُ رَجُلًا رَغْبَةً فِي رَغِيبةٍ وَأَخَّرْتُ رَجُلًا رَهْبَةً لِّلْمُعَاطِبِ^(٢)
أَخَافُ عَلَى نَفْسِي وَأَرْجُو مَفَازَهَا وَأَسْتَارُ غَيْبَ اللَّهِ دُونَ الْعَوَاقِبِ
أَلَا مَنْ يُرِينِي غَايَتِي قَبْلَ مَذْهَبِي وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ؟^(٣)

ط - الشكوى

حرمان

لقد حرم ابن الرومي القرى في الدنيا التي نزل ضيفاً بها ، وهو في مبيعة الشباب . فقال من قصيدة يشكو بها الزمان إلى إسماعيل بن بلبل :

وَيْحَ الْقَوَافِي مَالَهَا سَفْسَفَتْ حَظِّي كَأَنِّي كُنْتُ سَفْسَفْتُهَا!^(٤)
أَنْحَتُ عَلَى حَظِّي بِمَبْرَاتِهَا شُكْرًا لِأَنِّي كُنْتُ أَرْهَفْتُهَا

- (١) إن آفة الإنسان في الحياة هو الخوف والجن وتوقع زوال ما هو فيه . فهو لا يكاد يشتهي الرزق حتى يخاف زواله ويلاحظه بعين الحريص على بقاءه ، المتوجس من نفاده .
- (٢) المعاطب جمع معطب وهي مهالك المرء .
- (٣) أليس هناك من يرينا غاياتنا قبل أن نمضي في طريق الحصول عليها ؟ ولكن أنى لنا ذلك والغايات لا تكون إلا بعد أن يمضي الإنسان في طلبها ؟
- (٤) سفسفت الريح الشيء طيرته .

وَكَشَفْتُ دُونَ الْغَنَى سَدَّهَا^(١) حَتَّى كَأَنِّي كُنْتُ كَشَفْتُهَا
 حُرِّمْتُ فِي سَنَى وَفِي مَيْعَتِي قِرَايَ مِنْ دُنْيَا تَضَيَّفَتْهَا^(٢)
 لَهْفِي عَلَى الدُّنْيَا وَهَلْ لَهْفَةٌ تَنْصَفُ مِنْهَا إِنْ تَلَهَّفَتْهَا ؟
 كَمْ آهَةٍ لِي قَدْ تَأَوَّهْتُهَا فِيهَا . وَمَنْ أَفٍ تَأَفَّفَتْهَا
 قُبْحًا لَهَا قُبْحًا ! عَلَى أَنَّهَا أَقْبَحُ شَيْءٍ حِينَ كَشَفْتُهَا

مقاتل الزمان

لجأ ابن الرومي إلى سالم بن عبد الله بن عمر ليعينه على الزمان ، ويعطيه من الدروع التي يقاتل بها حروب الدهر ما يمكنه من صراع الحياة :

أَغْنِي يَا أَبَا حَسَنِ أَغْنِي فَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ لَدَى الْكَرُوبِ^(٣)
 أَجْرَنِي مِنْ نَقَائِصٍ قَدْ أَضَرَّتْ بَعْبُكَ يَارَبِّعَ ذَوَى الْجُدُوبِ^(٤)
 أُعِيذُكَ أَنْ تَخْفَ مِنْ دُرُوعِي فَإِنِّي مِنْ زَمَانِي فِي حُرُوبِ
 وَمَا تِلْكَ الدُّرُوعُ سِوَى هِبَاتٍ تَجُودُ عَلَيَّ مِنْ يَدِكَ الْوَهُوبِ
 أَصُونُ بِهَا الْمَقَاتِلَ مِنْ زَمَانٍ عَلَى الْأَحْرَارِ عِدَاءً وَثُوبِ
 تَرَوِّعُنِي النِّقَائِصُ كُلَّ شَهْرٍ مَعَ التَّعَبِ الْمُبْرِحِ وَالذُّؤُوبِ
 كَأَنِّي حِينَ أَذْكُرُهُنَّ أُرْمَى بِسَهْمٍ فِي فَوَادِي ذِي نُشُوبِ

(١) جعلت بيني وبين الغنى سداً كثيفاً وحاجزاً منيعاً

(٢) حرمت في نضارة عمري القرى والطعام من دنيا نزلت ضيفاً عليها

(٣) يذكرنا هذا المطلع في لهفة الاستغاثة بقول جرير الشاعر للخليفة الأموي عبد الملك

ابن مروان :

أَغْنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَاكِ

(٤) الجدوب : الإحمال وهو ضد الحصب .

أين الصفاء ؟

كان بين شاعرنا وبين أبي القاسم التوزي الشطرنجي مودة وصداقة كشفت حاجة ابن الرومي عن تقصير فيهما . فنظم قصيدة طويلة يعاتبه فيها ، وهي من مشهورات ابن الرومي . وإلى القراء الكرام أبياتاً تدل على روح الشاعر في عتابه :

يا أخى أين ربيع^(١) ذاك اللقاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟
 أين مصداق شاهد كان يحكى أنك المخلص الصحيح الإخاء ؟
 كشفت منك حاجتى هنوات غطيت برهة بحسن اللقاء^(٢)
 تركتني - ولم أكن سيئ الظن - أسى الظنون بالأصدقاء
 يا أخى هبك لم تهب لى من سعة يك حظاً كسائر البخلاء
 أفلا كان منك رد جميل فيه للنفس راحة من عناء ؟
 أجزاء الصديق إبطاؤه العشوة حتى يظل كالعشواء^(٣) ؟
 تاركا سعيه اتكالا على سعة يك دون الصحاب والشفعاء
 كالذى غره السراب بما خيه ل حتى هراق ما فى السقاء^(٤)

* * *

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ه لدهرى قطعت متن الرجاء ؟
 لا أجازيك من غرورك إيا ي غروراً ، وقيت سوء الجزاء

(١) ربيع الإخاء أى ثمرته وغلته وما كان ينتظر من نتيجه .

(٢) الهنوات جمع هنة . وهى : الشئ ، والمقصود بها الهفوات .

(٣) إبطاؤه العشوة أى إركابه على غير هدى . والعشواء هى الناقة التى لا تبصر فتظل تخبط

فى مشيتها على غير هدى .

(٤) هراق أى أراق وصب . والسقاء الوعاء من الجلد يحفر فيه الماء .

بل أرى صدقك الحديث^(١) وماذا
 أنت عيني وليس من حق عيني
 ما بأمثال ما أتيت من الأم
 لا ولا يكسب الحماد في النا
 ليس من حلّ بالحل الذي أ:
 بذلّ الوعد للأخلاء سمحا
 فعدا كالخلاف يورق للعي
 ليس يرضى الصديق منك يبشر
 ك لبخل عليك بالإغضاء
 غضّ أجفانها على الأقداء
 ر يحلّ الفتى ذرا العليا
 س ولا يشتري جميل الثناء
 ت به من سماحة ووفاء
 وأبى بعد ذاك بذلّ العطاء
 ن ويأبى الأثمار كلّ الأباء^(٢)
 تحت مخبونه دفين جفاء^(٣)

* * *

يا أبا القاسم الذي ليس يخفى
 أترى كلّ ما ذكرت جلياً
 ثم يخفى عليك أنى صديق
 لا لعمر الإله لكن تعايد
 بل تعاميت—غير أعمى—عن الحق
 ظالماً لى مع الزمان الذى ابـ ز
 ثقلت حاجتى عليك فأضحت
 وهى عبء من فادح الأعباء
 عنه مكنون خُطة عوجاء
 وسواه من غامض الأنحاء
 ربما عزّ مثله بالغلاء؟
 بصيراً فى ليلة قراء
 نهراً فى ضخوة غراء
 حقوق الكرام للؤماء
 وهى عبء من فادح الأعباء

(١) أرى صدقك الحديث أى أرى أن أصدقك الحديث ولا أخفى منه شيئاً عليك .

(٢) الخلاف شجر من نوع الصفصاف يورق ورقاً كثيراً ، ولكنه لا يشمر ثمرأ . ويضرب مثلاً للمنظر المعجب الذى لا يحمل فائدة ولا ثمرة .

(٣) رواية الشيخ شريف سليم : تحت مخبوره أى محتبّره . والمخبوء هو المختبئ الخفى .

ولها محل خفيف . . ولكن كان حظي لديك دون اللقاء^(١)
كنت مستوحشاً فأظهرت بخساً زادني وحشةً من الخلطاء
وعزيرٌ عليّ عضيك^(٢) باللو م ولكن أصبتَ صدرى بداء !
أنت أدويتَ صدرَ خلك فاعذرْ هُ على النفث إنه كالدواء^(٣) !

٢ - ابن الرومي الناصر

تهنئة بالعيد

كتب ابن الرومي إلى عميد الله بن سليمان يهنئ بعيد :

« أخرتني العلة عن الوزير — أعزه الله — فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب
عني ، ويعمر ما أخلتته العوائقُ مني . وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلية فيما يُحِبُّ ويُحِبُّ
له . و يقبل ما توسل به إلى مرضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان
منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ، ولباس العافية ؛ ولا يُريه في مسرةٍ نقصاً ،
ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلني من كل سوءٍ فداه » .

اعتراف بالود

وكتب رسالة قصيرة رواها صاحب « زهر الآداب » :

« إني لوليُّك الذي لم تزل تنقادُ لك مودته ، من غير طمع ولا جزع ، وإن
كنتَ لذي رغبةٍ مطمعاً ، ولذي رهبةٍ مهزباً » .

(١) اللقاء هو الشيء الخسيس الحقير .

(٢) يعز على أن أعضك باللوم والعتاب الشديد .

(٣) أدويت صدر خلك أي أصبته بالداء .

والنفث هو هذا العتاب الذي يفرج به عن نفسه كالدواء .

اعتذار من ذنب

وكتب إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد رسالة يتنصل فيها من ذنب :

« ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو إن كنتُ مسيئاً . فوالله
إني لأطلبُ عفو ذنب لم أجنّه ، وألتمسُ الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطوّلاً ،
وأزدادَ تذلاً . وأنا أعيذُ حالي عندك بكرمك من واشٍ يكيدها ، وأحرسها
بوفائك من باغٍ يحاولُ إفسادها . وأسألُ الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر
ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك ، والسلام . »

دعاء لمريض

وكتب رسالة إلى صديق له في علة يدعو له فيها بالشفاء :

« أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ،
ووجهَ وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ما حيةً لذنوبك ، مضاعفةً لثوابك . »

عتاب على نسيان هدية

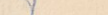
وعاد صديق له من بلدة « سيراف » فأهدى إلى جماعة من أصحابه ونسي ابن الرومي ، فكتب
إليه يعاتبه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك ، وجعلني فداءك ! لولا أنني في
حيرة من أمري ، وشغل من فكري لما افترقنا . وشوقى — علم الله — فغالب ،
وظمأى فشديد . وإلى الله الرغبةُ في أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ،
إنه قادر جواد . »

ومكاننا من جميل رأيك — أيدك الله — يبعثنا على تقاضى حقوقنا قبلك .
وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على إمضاء العزم فى ذلك . وما تطولت به من
الإيناس يؤنسنا بك ، وييسرنا إليك . وآثارُ يدك تدلنا عليك ، وتشهد لنا
بسماحتك . والله يطيل بقاءك ، ويديم لنا فيك وبك السعادة .

وبلغنى — أدام الله عزك — أن سحابة من سحاب تفضلك أمطرتُ
منذ أيام مطراً ، عم إخوانك بهدايا مشتملة على حُسن وطيب . فأنكرتُ على
عدلك وفضلك خروجى منها ، مع دخولى فى جملة من يعتدُّك ويعتقدك ،
وينحوك ويعتمدك .

وسبق إلى قلبى من ألم سوء الظن برأيك أضعافُ ما سبق إليه من الألم
بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبى من ظنه وقلبك من سهوه ،
واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقى العتاب ،
وفى ما عاتبْتُك كفاية ، عند من له أذنك الواعية ، وعينك الراعية » .



٦٥	.	.	.	.	.	.	.	.	دعاء
٦٦	.	.	.	.	.	.	.	.	المصلحون
٦٧	.	.	.	.	.	.	.	.	مستعبد الأحرار
٦٧	.	.	.	.	.	.	.	.	أمل
٦٨	.	.	.	.	.	.	.	.	(س) الهجاء :
٦٨	.	.	.	.	.	.	.	.	هجاء البحري الشاعر
٦٩	.	.	.	.	.	.	.	.	عقب المخازي
٧٠	.	.	.	.	.	.	.	.	خلايق ممسوخة
٧٠	.	.	.	.	.	.	.	.	طول الوجوه
٧١	.	.	.	.	.	.	.	.	(ج) الرثاء :
٧١	.	.	.	.	.	.	.	.	هدية الأب إلى الثرى
٧١	.	.	.	.	.	.	.	.	شكل السرور
٧٤	.	.	.	.	.	.	.	.	أين العزاء ؟
٧٥	.	.	.	.	.	.	.	.	مصرع الشهيد
٧٧	.	.	.	.	.	.	.	.	(د) الوصف :
٧٧	.	.	.	.	.	.	.	.	ليل أيلول
٧٨	.	.	.	.	.	.	.	.	تبرج الدنيا في الربيع
٧٨	.	.	.	.	.	.	.	.	تهلل السحاب
٧٩	.	.	.	.	.	.	.	.	رياض ذات وشى
٨٠	.	.	.	.	.	.	.	.	تفضيل النرجس على الورد
٨١	.	.	.	.	.	.	.	.	بعض ليالى بغداد
٨٢	.	.	.	.	.	.	.	.	أنفاس عباس
٨٣	.	.	.	.	.	.	.	.	حاضنة العود
٨٤	.	.	.	.	.	.	.	.	ركوب البحر
٨٥	.	.	.	.	.	.	.	.	وصف سفينة
٨٦	.	.	.	.	.	.	.	.	ليلة في خان
٨٧	.	.	.	.	.	.	.	.	أسد
٨٨	.	.	.	.	.	.	.	.	ثقل
٨٨	.	.	.	.	.	.	.	.	ثقل آخر
٨٩	.	.	.	.	.	.	.	.	(هـ) الغزل :
٨٩	.	.	.	.	.	.	.	.	جراح القلوب
٩٠	.	.	.	.	.	.	.	.	دموع الفراق

I Love You

I AM

I AM

I AM

- ٦٥ دعاء
- ٦٦ المصلحون
- ٦٧ مستعبد الأحرار
- ٦٧ أمل
- ٦٨ الهجاء :
- ٦٨ هجاء البحترى الشاعر
- ٦٩ عبق المخازى
- ٧٠ خلائق ممسوخة
- ٧٠ طول الوجوه
- ٧١ الرثاء :
- ٧١ هدية الأثب إلى الثرى
- ٧١ ثكل السرور
- ٧٤ أين العزاء ؟
- ٧٥ مصرع الشهيد
- ٧٧ الوصف :
- ٧٧ ليل أيلول
- ٧٨ تبرج الدنيا في الربيع
- ٧٨ تهلل السحاب
- ٧٩ رياض ذات وشى
- ٨٠ تفضيل النرجس على الورد
- ٨١ بعض ليالى بغداد
- ٨٢ أنفاس عباس
- ٨٣ حاضنة العود
- ٨٤ ركوب البحر
- ٨٥ وصف سفينة
- ٨٦ ليلة في خان
- ٨٧ أسد
- ٨٨ ثقل
- ٨٨ ثقل آخر
- ٨٩ الغزل :
- ٨٩ جراح القلوب
- ٩٠ دموع الفراق

I Love you

I AM

I AM

I AM

٩٠	.	.	.	.	.	.	.	.	ملامة العشاق
٩١	.	.	.	.	.	.	.	.	عذاب الحسن
٩١	.	.	.	.	.	.	.	.	القرب والبعد
٩٢	.	.	.	.	.	.	.	.	(و) شعر الحنين إلى الأوطان :
٩٢	.	.	.	.	.	.	.	.	علة الحنين
٩٣	.	.	.	.	.	.	.	.	(ز) البكاء على الشباب :
٩٣	.	.	.	.	.	.	.	.	عهد الشبيبة
٩٦	.	.	.	.	.	.	.	.	بياض المشيب
٩٧	.	.	.	.	.	.	.	.	(ح) الحكمة والمثل :
٩٨	.	.	.	.	.	.	.	.	نعمة الصحة والتقناعة
٩٨	.	.	.	.	.	.	.	.	ليس عن الصبر مذهب
٩٩	.	.	.	.	.	.	.	.	بين الإقدام والإحجام
٩٩	.	.	.	.	.	.	.	.	(ط) الشكوي :
٩٩	.	.	.	.	.	.	.	.	حرمان
١٠٠	.	.	.	.	.	.	.	.	مقاتل الزمان
١٠١	.	.	.	.	.	.	.	.	(ي) العتاب :
١٠١	.	.	.	.	.	.	.	.	أين الصفاء ؟

٢ - ابن الرومي الناصر

١٠٣	.	.	.	.	.	.	.	.	تهنئة بالعيد
١٠٣	.	.	.	.	.	.	.	.	اعتراف بالود
١٠٤	.	.	.	.	.	.	.	.	اعتذار من ذنب
١٠٤	.	.	.	.	.	.	.	.	دعاء لمريض
١٠٤	.	.	.	.	.	.	.	.	عتاب على نسيان هدية

١٠٦	.	.	.	.	.	.	.	.	المراجع
١٠٨	.	.	.	.	.	.	.	.	الفهرست

15 JUN 1987

١٥٩

شحي ااصاليل

د عبد الله حفي

البيت الموريه انما للكا ب

١٩٥٥

AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 12 MAR 1997	 A.U.C. - 6 JAN 1998
 A.U.C. 6 - MAY 1997	
 A.U.C. 26 MAY 1997	
 A.U.C. 5 JUN 1997	

AUC - LIBRARY

6.11923398
7-13234328

00

main



00000027703

PJ 7745 I165 Z69 1955/c.1

15 JUN 1987

